صفحات مطوية

من حياة سلطان العلماء العز بن عبد السلام

(٥٧٧ - ٦٦٠ هـ)

بقلم
سليم بن عيد الهلالي

دار ابن الجوزي

صفحات مطوية

من حياة سلطان العلماء

العز بن عبد السلام

(٥٧٧ - ٦٦٠ هـ)

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ-١٩٩٠م



دار ابن الجوزي
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية

الدمام: شارع ابن خلدون ت: ٨٤٢٨١٤٦
ص.ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس ٨٤١٢١٠٠
الاحساء: الهفوف - شارع الجامعة
ت: ٥٨٢٤٦٧٢ - ص.ب ١٧٨٦

صفحات مطوية

من حياة سلطان العلماء
العز بن عبد السلام
(٥٧٧ - ٦٦٠ هـ)

بقلم
سليم بن عيد الهلالي

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ـ عزَّ شأْنُه :

﴿يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾

[محمد: ٧]

«اللهُمَّ! أَبرِمْ لهٰذهِ الأُمَّةِ أَمْراً رَشَداً؛ تُعِزُّ فيهِ وَلِيَّك، وتُذِلُّ بهِ عَدُوَّكَ، ويُعْمَلُ فيهِ بطاعَتِكَ، ويُنْهَى عَنْ مَعْصِيَتِكَ».

[سلطان العلماء العز بن عبد السلام]

مقدمة

إنَّ الحمدَ للهِ؛ نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفِرُهُ، ونعوذُ باللهِ مِن شُرورِ أَنْفُسِنا ومِن سَيِّئاتِ أَعمالِنا، مَن يَهْدِهِ الله؛ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ؛ فلا هادِيَ له.

وأَشْهَدُ أَن لا إِلٰهَ إلا الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ.

وأَشْهَدُ أَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ.

أَما بعد:

«فإن الله ـ عز وجل، وتقدست أسماؤه ـ اختصَّ مِن خلقِه مَن أحب، فهداهُم للإيمان، ثم اختصَّ من سائِر المؤمنين مَن أحب، فتفضل عليهم، فعلمهم الكتاب والحكمة، وفقَّههم في الدين، وعلمهم التأويل، وفضلهم على سائر المؤمنين، وذٰلك في كل زمان وأوان.

رفعَهُم بالعلم، وزيَّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلال من الحرام، والحق من الباطل، والضارُّ من النافع، والحسن من القبيح.

فضلُهم عظيم، وخطرهم جزيل، ورثةُ الأنبياء، وقرةُ عين الأولياء

الحيتانُ في البحار لهم تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع.

مجالِسُهم تفيد الحكمة، وبأعمالِهم ينزجر أهل الغفلة.

هم أفضلُ مِن العُبَّاد، وأعلى درجةً من الزُّهَّاد، حياتُهم غنيمة، وموتُهم مصيبةٌ، يذكِّرون الغافل، ويعلِّمون الجاهل، لا يُتَوَقَّع لهم بائقة، ولا يُخاف منهم غائلة

بحسن تأديبهم يتنازع المطيعون، وبجميلِ موعظتهم يرجع المقصرون، جميع الخلق إلى علمهم محتاج، والصحيح على مَن خالف بقولهم محجاج.

الطاعةُ لهُم في جميعِ الخلق واجبة، والمعصيةُ لهم محرَّمة، مَن أطاعهم؛ رشَد، ومَن عصاهُم؛ عنَد، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتبه عليه حتى وقف فيه؛ فبقولِ العلماء يعمل، وعن رأيِهم يصدُر، وما ورد على أمراء المسلمين من حكم لا علم لهم به؛ فبقولهم يعملون، وعن رأيهم يصدُرون، وما أشكل على قضاة المسلمين من حكم؛ فبقول العلماء يحكمون، وعليه يعوِّلون.

فهم سراج العباد، ومنار البلاد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة، هم غيظُ الشيطانِ، بهم تحيا قلوبُ أهلِ الحق، وتموت قلوبُ أهلِ الزَّيغ.

مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهْتَدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا انطمست النجوم؛ تحيَّروا، وإذا أسفر عنها الظلام؛

أبصروا»[1].

ولما كان الأمر كما وصف، وبه أُقِرُّ وأَعترِف، انتقيتُ بصائرَ من حياة سلطان العلماء الذي كان آيةً من آيات الله؛ في العلم، والاستقامة، والعزة بالله، والزهد في الدنيا، والارتفاع عن أهواء العامَّة، ومداهنة الملوك.

يَصْدَعُ بالحق، لا يخاف لومة لائم، ولو كان وراء ذٰلك السجن أو الموت.

وجاهد أعداء الله بيده ولسانه، وسيفه وسنانه، وأبى إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، فكان أمَّةً لوحده، وكان في صفوف المسلمين قوةً ضخمةً، وأسوةً حسنةً.

وأرجو الله أن تكون تطبيقاً للحقِّ في دنيا الناس، مُعْلِمَةً الناسَ أن الأرض لن تخلو من قائم لله بحجة، يجدِّدُ لهٰذه الأمة أمر دينها، لئلا يكون للناس على الله حُجَّة.

وعلى الله قصد السبيل.

وكتبه
أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي
ضحى ثلاثاء العافية يوم التروية
لثمان نيال خلت من ذي الحجة
سنة ألف وأربع مئة وتسع من هجرة الرسول ﷺ
في عمان البلقاء عاصمة الأردن

---

(١) «أخلاق العلماء»: الآجري، (ص ١٥ ـ ١٧).

الفصل الأول
من هُو سُلطانُ العلماء؟

نسبه ونسبته:

هو أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن بن محمد بن مهذب السلمي، المغربي الأصل، الدمشقي الولادة، المصري إقامة ووفاة.

فهو (السُّلَمِيّ)؛ بضم السين المهملة: نسبةً إلى بني سُلَيْم، إحدى القبائل المشهورة من مُضَر.

وهو (المغربي): فلقد هاجرت قبيلتُه بنو سليم إلى المغرب مع بني هلال؛ لأسباب سياسية، فلعلَّ أحد آبائهِ قدم من المغرب، واستوطن الشام.

لقبه:

لُقِّبَ بـ (عز الدين)؛ جرياً على سنن أهل عصره، الذي انتشرت فيه هذه الألقاب المنسوبة إلى الدين، لغلبة سلطان الدين في نفوس أهل ذلك

الزمان، وعنايتهم به، حتى لُقِّبَ به الملوك، والأمراء، والعلماء[٢].

ويكأنَّ الله أبى إلا أن يكون لسلطان العلماء من لقبه نصيب وافرٌ، فقد أعز الله به الإسلام في مواطن كثيرة، فكانت له المواقف المثيرة.

ولقَّبه تلميذه ابن دقيق العيد بـ (سلطان العلماء).

ومَن تأمَّلَ سيرته الملأى بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنُّصح للملوك والسلاطين، ومقارعتهم بالحجة؛ دون خوف، أو رهبة، أو تملُّق؛ يرى أن هٰذا اللقب حقٌّ وصدق.

ووصفه بعضهم بـ (بائع الملوك)؛ للحادثة المشهورة التي تُعَدُّ بحق من أفراد وغرائب التأريخ الصحيح.

واشْتُهِرَ بـ (العز بن عبد السلام).

وأصبح مضرب الأمثال، فقد قالوا:

«ما أنت إلا من العوامّ، ولو كنتَ ابنَ عبدِ السلام».

مولده::

ولد سلطان العلماء في دمشق الفيحاء عام (٥٧٧ هـ أو ٥٧٨ هـ)، وهٰذا الاختلاف؛ لأن كتب التراجم لم تسجل شيئاً مذكوراً عن نشأته الأولى، أو عن آبائه؛ يوضحه:

---

(٢) هٰذا من باب التعاطف المحجوب عن معرفة الحكم الشرعي في المسألة، وهٰذه الألقاب والأسماء لا تجوز شرعاً؛ لأن عمادها التزكية، وانظر بحثاً ماتعاً في بيان ذٰلك ضمن «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢١٦).

نشأته وطلبه للعلم :

نشأ سلطان العلماء فقيراً جداً، وطلب العلم على كِبَر؛ لذٰلك جد واجتهد؛ في حفظ المتون، ودراسة الكتب، ومجالسة كبار شيوخ عصره؛ فعوَّض ما فاته في صغره، وأدرك أقرانه، وسبق معاصريه.

وكان سلطان العلماء لا يبْرَحُ حتى يأتي على جميع الكتاب الذي قرَّره أئمة كلِّ فنٍّ لذٰلك العلم، وقد أخبر عن نفسه؛ كما نقله الداوودي في «طبقات المفسِّرين» (١ / ٣٢٠) :

«ما احتجتُ في علم من العلوم إلى أنْ أكملَهُ على الشيخ الذي أقرأ عليه، وما توسَّطتُه على شيخ من المشايخ الذين كنتُ أقرأ عليهِم ؛ إلا قال لي الشيخ :

قدِ اسْتَغْنَيْتَ عني، فاشْتَغِلْ مع نفسكَ.

ولم أقنعْ بذٰلك، بل لا أبرحُ حتى أكْمِلَ الكتابَ الذي أقروه في ذٰلك العلم» .

هٰذه إشارةُ أصبعٍ من سلطان العلماء للذينَ أصيبوا بعمى الألوان، فنبتت أشجارهم في أرض جرداء، فراموا البروز قبل النضوج، وتزبَّبوا قبل أن يُحَصْرِموا، وتهافتوا مثل الفراش على مقام العلم في الفُتْيا والتأليف، واقْتحموا قمم عُدولِ الأمة السالفين؛ تحت راية نشر تراثهم، وتحقيق تواليفهم ؛ فحَلُّوا في رحاب العلم معولاً يهدم حماه، ويخرقُ سياجَهُ.

ولقد زاد تنمُّرَهم إقبالُ العامة على مجالستهم تعجباً، وإلقاء السمع

إلى قَصصهم طرباً.

وقوِيَ توثُّبهم عندما تساقط تجار الفكر على نتاجهم لتبذُّلهم، وفتحت دكاكين الكتب أبوابَها لرخصهم.

بينما المخلص يقلب كفيه تأسفاً وحزناً؛ لانفتاح باب الفتنة التي صرعت عدة المستقبل في أحضان الأدعياء.

ولكن؛ لا تغرَّنَّكُمُ البرقةُ؛ فإنها فجر كاذب.

ولا تهولَنَّكُمُ المفاجأةُ؛ فإن الجهابذة ينخلونهم نخلاً، فيبقى اللبابُ، وتعيش على النخالة دواب.

وكلٌّ يقومُ حسب وسعهِ وطاقتِه على منهاج النبوةِ، فإن النصح لكل مسلم ميثاقٌ نبويٌّ.

ولم يكْتفِ سلطان العلماء باستكمال العلوم على أربابها، بل كان دائم المذاكرة لها؛ لأن العلم إن لم يتعاهدْه صاحبه أطرافَ النهارِ وزُلفاً من الليل بذلك؛ فلا يأمن أنْ يجتالَهُ النسيان، أو يمسه الوهم، أو يختلط عليه، فالعلم سريع التفلُّت، وقَيْدُه المذاكرة والتدوين.

نقل عنه الحافظ ابن حجر في «رفع الإصر عن قضاة مصر» (ص ٣٥٠) قوله:

«مضتْ لي ثلاثون سنة، لا أنام حتى أُمِرَّ أبوابَ «الأحكام» على خاطِري».

شيوخُهُ :

كانت دمشقُ الفيحاء في عصر سلطان العلماء قبلةً للعلماء من الشرق والغرب، فاجتمع فيها جهابذة العلماء، فيمَّم سلطان العلماء وجهه شطرَهم، وتلقى العلم من أفواه كبار شيوخ عصره، وتفقَّه على كثير من العلماء، وثافن مجالسهم، ونهل من مَعينهم الفيَّاض، واقْتَطَفَ مكارم الأخلاق من هاتيك الرياض، ولو ذهبنا نحصيهم؛ لاستعصى ذلك علينا في هذه العجالة، ولكن يكفيكَ معرفةُ مَن تأثَّر بهم وأحبَّهم حتى الثمالة:

ـ عبد اللطيف بن إسماعيل البغدادي، المتوفى سنة (٥٩٦ هـ).

ـ بركات بن إبراهيم بن طاهر الخشوعي، المتوفى سنة (٥٩٨ هـ).

ـ القاسم بن عساكر، المتوفى سنة (٦٠٠ هـ).

ـ حنبل بن عبد الله الرّصافي، المتوفى سنة (٦٠٤ هـ).

ـ محمد بن عبد الواحد الحرستاني، المتوفى سنة (٦١٢ هـ).

ـ عبد الرحمن بن محمد، المعروف بـ (ابن عساكر)، المتوفى سنة (٦٢٠ هـ).

ـ علي بن أبي علي، المعروف بـ (الآمدي)، المتوفى سنة (٦٣١ هـ).

رحلاته :

لم يكتف سلطان العلماء بعلماء بلده، فيمَّم شطر بغداد عاصمة

الخلافةِ سنة (٥٩٧ هـ)، والتقى بعلمائها، وتردَّد عليهم، ونهل من علمهم، ولبثَ أشهراً فيها.

تلاميذهُ:

تخرَّج بسلطان العلماء أئمَّة؛ منهم:

ــ عبد الرحمٰن بن إسماعيل المعروف بـ (أبو شامة)، المتوفى سنة (٦٦٥ هـ).

ــ أحمد بن عبد الرحمٰن بن محمد الكندي، المعروف بـ (جلال الدين الدشناوي)، المتوفى سنة (٦٩٧ هـ).

ــ هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل، المعروف بـ (القِفْطي) (٣)، المتوفى سنة (٦٩٧ هـ).

ــ محمد بن مجد الدين علي بن وهب القشيري، المعروف بـ (ابن دقيق العيد)، المتوفى سنة (٧٠٢ هـ).

ــ عبد المؤمن بن خلف، الحافظ الدمياطي، المتوفى سنة (٧٠٥ هـ).

ــ علي بن محمد أبو الحسن الباجي، المتوفى سنة (٧١٤ هـ).

---

(٣) وهو غير القفطي علي بن يوسف، صاحب «إنباه الرواة على أنباء النحاة»، المتوفى سنة (٦٤٦ هـ).

تواليفه:

لقد نبغ سلطان العلماء في علوم الشريعة، وترك مصنفات في فنون العلم؛ من تفسير، وحديث، وفقه، وأصول، ولكنه بقي ممَّن قيل فيهم: علمهم أكثر من مصنَّفاتهم، ودرايتهم فوق عبارتهم.

وأشهر مؤلفاته المطبوعة، والتي تدل على تبحُّره في العلوم، ورسوخ قدمه في فهم الشريعة:

١ - في التفسير:

- «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز».
- «فوائد في مشكل القرآن».

٢ - في الفقه وأصوله:

- «الترغيب عن صلاة الرغائب الموضوعة».
- «الفتاوى المصرية».
- «قواعد الأحكام في مصالح الأنام».

٣ - في الحديث والسيرة:

- «بداية السول في تفضيل الرسول ﷺ».

٤ - في العلوم الأخرى:

- «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام».

وأما تواليفه المخطوطة؛ فهي كثيرة، نرجو الله أن ييسر للعاملين المخلصين في تحقيق ونشر التراث إخراجها ونشرها.

وفاته:

اخترمته المنية ـ رحمه الله ـ في العاشر من جمادى الأولى سنة (٦٦٠ هـ) بالقاهرة، ودُفن بالقرافة الكبرى(٤).



(٤) مصادر ترجمته:

ـ «الأعلام»: الزركلي، (٤ / ٢١).

ـ «البداية والنهاية»: ابن كثير، (١٣ / ٢٣٥).

ـ «حسن المحاضرة»: السيوطي، (١ / ٣١٤ و٢ / ٢٦١).

ـ «شذرات الذهب»: ابن العماد الحنبلي، (٥ / ٣٠١).

ـ «طبقات الشافعية»: السبكي، (٥ / ٨١).

ـ «طبقات الشافعية»: ابن هداية الله الحسيني (ص ٢٦٧).

ـ «العبر في خبر من غبر»: الذهبي (٣ / ٢٩٩).

ـ «فوات الوفيات»: الكتبي، (٢ / ٣٥٠).

ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»: ابن تغري بردي، (٧ / ١٢).

الفصل الثاني
سلطان العلماء وملوك الأرض

إنكاره على الملوك التنازل عن ديار المسلمين، وعقد الصلح مع الفرنجة الصليبيين الغاصبين المعتدين:

لما تحالف الصالح إسماعيل المعروف بـ (أبو الخبيش) مع الصليبيين، وأسلمهم قلعة صفد، وقلعة الشقيف، وصيدا، وبعض ديار المسلمين اختياراً؛ لينجدوه على الصالح نجم الدين أيوب، حاكم مصر؛ لأن الصالح إسماعيل خاف منه، فكاتب الفرنجة؛ ليساعدوه ضد ابن أخيه حاكم مصر، فكان الثمن تسليم ديار المسلمين، وحصون الموحدين، وتطبيع العلاقات، وفتح الحدود.

فدخل الصليبيون دمشق لشراء السلاح؛ ليقاتلوا المسلمين، وينشروا الفساد بين أبنائهم، فشق ذلك على سلطان العلماء مشقة عظيمة، فأنكر ذلك، وترك الدعاء له في الخطبة، وجدَّد دعاءه في الجامع الذي كان يدعو به إذا فرغ من الخطبتين قبل نزوله من المنبر:

«اللهمَّ أبْرِمْ لهٰذه الأمة أمراً رشداً، تُعِزُّ فيه وليَّك، وتُذِلُّ فيه عدوَّك،

ويُعْمَلُ فيه بطاعتِك، ويُنْهَى عن معصيَتِك».

والناس يبتهلون بالتأمين والدعاء للمسلمين بالنصر على أعداء الله من الصليبيين والمنافقين، الذين يلقون إليهم بالمودَّة، ويبيعون ديار المسلمين.

عندئذٍ كتب جواسيس السلطان الذين يبثهم لاستراق السمع بذلك، ورفعوا التقارير الظالمة، وحرَّفوا القولَ وزخرفوه(٥)، فجاء كتاب السلطان باعتقال سلطان العلماء، فسُجِنَ، وضُيِّقَ عليه، ثم أُطْلِق قيده بعد محاورات ومراجعات، فخرج مهاجراً إلى مصر.

وتوجَّه الصالح إسماعيل إلى مصر، تحرسهُ الجيوش الصليبيَّة الحاقدة؛ ليحارب الصالح أيوب، وكأنه تأسف لإطلاق الشيخ، وأوجس في نفسه خيفة، فأرسل إلى سلطان العلماء بعض أعوانه، وأمره أن يستنْزِلَه على وجه السياسة ـ في زعمه؛ ليقعَ منه مداهنة، ولو في بعض الأوقات، أو في بعض الأحوال، أو على بعض الوجوه، ويقنعوا منه بذلك؛ ليقف لهم بتلك المجاملة واهي بنائهم.

فقال السلطان لرسوله:

تتلطَّفُ به غاية التلطُّف، وتستنزله، وتعده بالعودة إلى مناصبه على أحسن حال، فإن وافقك؛ فتدخل به علي، وإنْ خالفك؛ فاعتقلْه في خيمته إلى جانب خيمتي.

---

(٥) وهكذا يصنع أحفادهم في كل عصر ومصر.

فلما اجتمع رسول السلطان مع سلطان العلماء؛ شَرَعَ في مسايستِه وملاينته، ثم قال له:

بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وما كنت عليه، وزيادة: أنْ تنكَسِرَ للسلطان، وتقبل يده لا غير.

فأبى سلطان العلماء إلا الثبوت على محض الحق، والمحافظة على خالص الصواب، وأجاب رسول السلطان جواباً خرَّ من هَوْله صَعِقاً!!

واللهِ يا مسكينُ! ما أرضاه أن يقبِّل يدي، فضلاً أن أقبل يده، يا قوم! أنتم في واد، وأنا في واد، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

إنها إشارة تدلُّ على الإباء والاستعلاء... إنها ليست كبرياء الذات، ولا استعلاء النفس... إنما هي عزة العقيدة، وعلو الراية التي ينضوون تحتها في مواجهة أعداء الله وعدوِّهم.

إنها الثقة بأنهم على الحق، يحملون الخير للناس كافة، ليطوِّعوهم للخير الذي معهم، لا أن يطوِّعوا الآخرينَ لأنفسهم، أو أن يطوِّعوا أنفسهم للآخرين، وما في أيدي الآخرين.

إنها الثقة بغلبة دين الهدى في الأرض على دين الهوى، وبقوة الله على كل القوى، وحزب الله على أحزاب الجاهلين... فهم الأعلون في أثناء الطريق الطويل، حتى وهم يخسرون بعض الجولات.

هٰذه سمةُ المؤمنين المحبِّين... إنه الاطمئنان إلى الله، يملأ نفوسَهم، ويحرِّك جوارحَهم.

ولذٰلك؛ فهم يرفضون منطق الأرض، ومنطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان، إن المؤمن لا يستمد تصوراتِه وقيمهِ وموازينِه من الناس حتى يأسى على تقديرِ الناس، إنما يستمدُّها من ربِّ الناس، وهو حسبه... إنه يستمدُّها من ميزانِ الحقِّ الثابت الذي لا يتأرْجَحُ ولا يميلُ، إنَّه لا يتلقَّاها من هٰذا العالم الفاني المحدود، فأنَّى يجد في نفسه وهَناً، أو يجد في قلبه حَزَناً؟!

إنَّه على الحق... فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! وليكن للباطل سلطانه، وليكن له هيله وهيلمانه، ولتكن معه جموعه وجنوده... إن هٰذا لا يغيِّر من الحق شيئاً.

فلما أفاق رسول السلطان من دهشته؛ أرْغى وأزْبَد، وهدَّد وتوعَّد، وأعلن عن اعتقال الشيخ؛ قائلاً:

قد رُسِمَ لي: إن لم توافقْ على ما يُطلَب منك، وإلا اعتقلتك.

إنها خطوات الشيطان التي تدرك أنَّ بعض النفوس لا يجتالها التَّزيين الشيطانيُّ؛ لأنها موصولةٌ بالنبع الربَّاني، فعندئذ يبدأ الشيخ أبو مرَّة[٦] معها نوعاً جديداً، وهو التخويف، والتهويل، والتشويش، فيحاوِل أن يجعلَ أولياءَه مصدرَ رعبٍ، وأن يخلعَ عليهم القوة والهيبة.

إن الشيطان ـ وهو يضخِّم أولياءه، ويُلبسهم لباس الحَوْل والطّوْل ـ إنما يريد أن يقضيَ بهم غاياتِه وأغراضَه؛ لأن الشيطان صاحب مصلحة في

---

(٦) هي كنية إبليس ـ لعنه الله ـ كما في «لسان العرب» (٥ / ١٧١).

أن ينتَفِشَ الباطل، ويعرْبِدَ، ويبدو قوياً قادراً قاهراً جباراً. . .

فتحت شعارِ الخوف والرهبة يفعل أولياؤه في الأرض الأفاعيل التي تَقَرُّ لها عين الشيطان، فيقلبون المعروف منكراً، والمنكرَ معروفاً.

والشيطان ماكـر خادع، يختفي وراء أوليائـه، ومن هنا يكشف الله كيده، ويوهن أَيْدَه، ويوقفه أمام المؤمنين المخلصين عارياً؛ لا يستره ثوب من مكر أو خداع أو كيد أو تزيين أو تخويف.

قال ـ تعالى:

﴿إنَّما ذٰلِكُمُ الشَّيْطانُ يُخَوِّفُ أوْلِياءَهُ فلا تَخافوهُمْ وخافُونِ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فلما سمع سلطان العلماء مقالة رسول السلطان؛ أجاب:

افعلوا ما بدا لكم.

إنها لمسة الإيمان في قلب متصل ببارئه، فإذا هو قوي قويم، وإذا بكل قوى الأرض ضئيلة أمامه، والحياة الفانية زهيدة، فسلطانكم مقيَّد، وما تملكونه من عذاب أيسر من أن يخشاه قلب متصل بالله، ويأمل في حياة الخلد عند مليك مقتدر، وكيف لا يأمل وهو قد ذاق حلاوة الإيمان، وتقلَّب في أفواف جنَّة الدنيا التي وجدَ عَرْفَها المخلصون، وهي معرفة الله، والأنس به، والشوق إلى لقائه، وخشيته، وطاعته، والعلم النافع والعمل الصالح يدلان عليها، فمَن دلَّه علمه وعمله على دخول هٰذه الجنة في الدنيا؛ ورث الفردوس الأعلى في الآخرة، ومَن لم يجد رائحتها، ولم يعرف سبيلها؛ لم

يشمَّ عَرْف الجنة يوم القيامة.

فأُخِذَ سلطان العلماء، واعتقلوه في خيمة إلى جانب خيمة السلطان، فأخذ سلطان العلماء ـ رحمه الله ـ يقرأ القرآن، والسلطان يسمع، فقال يوماً لملوك الصليبيين:

أتسمعون هٰذا الشيخ الذي يقرأ القرآن؟

قالوا: نعم.

قال السلطان ـ الذي باع نفسه لأعداء الله، وتخلى عن شخصيتِه ـ متقرباً لأوليائِه الصليبيين:

هٰذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبستُه؛ لإنكاره على تسليمي لكم حصون المسلمين، وعزلته عن الخطابة بدمشق، وعن مناصبه.

ثم أخرجتُه، فجاء القدس، وقد جددتُ حبسه واعتقاله لأجلكم.

هٰذه هي الجِبِلَّة الحاقدة التي تتلهى بتعذيب المؤمنين، وكلما صُبَّ العذاب على مَن يقول: ربيَ الله؛ ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة، وعربد السعَّار بالمجانيق، فانتكسوا في الفتنة، وارتكسوا في الحمأة، فراحوا يتقربون لأسيادهم من الصليبيين واليهود؛ بتعذيب الذين يأمرون الناس بالقسط.

في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد هزم الإيمان، وأن هٰذا الإيمان الذي يرفرف في الذروة السامقة في نفوس الفئة المؤمنة، التي لم يجتالها سَقَطُ المتاع... لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة الدائرة

بين الإيمان والطغيان.

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان؛ ليست هٰذه القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر الربح والخسران، والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة، فهٰذه صورة واحدة من أخرى كثيرة.

إن القيمة العظمى في ميزان الله هي الإيمان، وإن النصر في أبهج صوره هو الثبات على الإيمان في الفتنة.

ويأبى الله إلا أن يَذِلَّ مَن عصاه متقرباً للكافرين بتعذيب المؤمنين، ويذوقَ الذل على أيدي أوليائه وأعوانه(٧).

فلما سمع ملوك الصليبيين هٰذه الميوعة الرخيصة التي استقرت بصاحبها في الدَّرْك الأسفل من العمالة؛ أرادوا أن يهينوه، ويذلوه؛ لأنه هان، فاستمرأ حياة الهون.

ولله در القائل:

ومَن يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوانُ عليهِ
ما لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إيْلامُ

فقال ملوك الفرنجة:

---

(٧) وقد أثبت التأريخ بوقائعه الكثيرة أن الكفرة كلما أخذوا بغيتهم من عميل، واستهلكوه؛ عمدوا إلى تصفيته!

وانظر تعليق (رقم ١٢).

والله لو كان هٰذا قسيسنا؛ لغسلنا رجليه، وشربنا مرقتها.

ثم جاءت الجيوش الإسلامية من مصر، ففرَّقوا عساكر الصليبيين، ونصر الله أهل طاعته، وخذل المنافقين، ونجَّى الله الشيخ من كيد الشيطان وحزبه، ودخل مصر آمناً.

وولَّاه الصالح نجم الدين أيوب قضاء مصر وغيرها من المناصب، ولكن سلطان العلماء لم يقدم تنازلاً، بل ازداد صلابة في الحق، وبالغ في القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصح لله، وكتابه، وأئمة المسلمين، وعامتهم، ومن ذٰلك:

نصحه للملوك:

دخل سلطان العلماء ـ رحمه الله ـ يوم العيد القلعة، والسلطان نجم الدين أيوب بن الكامل في زينته، وجنوده بين يديه، وأمراء الدولة تقبِّل الأرض له؛ فالتفت سلطان العلماء إليه منادياً باسمه المجرَّد:

يا أيُّوبُ! ما حُجَّتُك عند الله، إذا قال لك:

ألم أُبَوِّىء لك ملك مصر، ثم تبيحُ الخمورَ؟!

فتجاهل أيوب حقيقة السؤال تجاهل العارف، وتنمَّرَ تنمُّرَ المريب؛ قائلاً:

هل جرى هٰذا؟

فرفع سلطان العلماء صوته:

نعم، الحانة الفلانية يُباع فيها الخمور، وغيرها من المنكرات، وأنت

تتقلَّب في نعمة هٰذه المملكة.

فلما رأى أيوب أن حقائق ما يجري في مملكته مكشوفة لورثة الأنبياء؛ حاول الإخفاء والادِّعاء؛ ظناً ـ إذ لم يتمسك بالدليل الناصع ـ أن الخلاف يوهِنُ الثقة، ويقبح جهة الاستحسان، فاجتهد أن ينتصر بعلم، فلم يجد أكثر من تقليد الآباء، فحاد عن الجواب القاطع المورد مورد السؤال، إلى الاستمساك بتقليد آبائه، فقال:

يا سيِّدي! هٰذا أنا ما عملته، هٰذا من زمان أبي.

حينئذ أجابه سلطان العلماء بقوله تعالى، الذي ينعى على المقلِّدين لآبائهم، المتبجِّحين بضلالهم، المستترين وراء انحرافهم؛ قائلاً:

أنتَ مِن الذين يقولونَ:

﴿**إنَّا وَجَدْنا آباءنا على أُمَّةٍ**﴾.

ويتسَلَّل الرعبُ إلى نفس السلطان؛ فيرسُم بإبطال بتلك الحانة.

وقد شاع الخبر في القاهرة، واستغرب الناس جرأة سلطان العلماء؛ لأن أيوب كان جباراً متكبِّراً مستبداً برأيه، لا يستطيع أحد أن يتكلم بين يديه إلا جواباً، وما عُرِف عن أحد من خواصِّه أن تكلم في مجلسه ابتداء، ولا جسر على شفاعة، ولا مشورة، ولا ذكر نصيحة؛ ما لم يأذن بذٰلك السلطان.

أمام هٰذا الجبروت يرفعُ الحق صوتَه عالياً مدوياً وسط قلعة الباطل في يوم عيد على مشهد من الخلق.

وبدأ الناس يتساءلون عن سر هٰذه الجرأة، ويوجَّه هٰذا الاستغراب والتساؤل إلى سلطان العلماء، على لسان تلميذه الباجي:

يا سيدي! كيف الحال؟

فقال الشيخ ـ رحمه الله:

يا بني! رأيتُه في تلك العظمة، فأردتُ أن أهينَهُ؛ لئلا تكبر نفسه، فتؤذيه.

فقال تلميذه:

أما خفتَهُ؟

قال الشيخ:

والله يا بني! استحضرتُ هيبةَ الله ـ تعالى، فصارَ السلطان قدَّامي كالقط.

إنهـا حالـة الاستعلاء بالإيمان، التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء، وكـل وضع، وكل قيمة، وكل أحد... استعلاء الإيمان وقيمه على جميع القيم التي لا تنبثق عن الإيمان.

الاستعـلاء الـذي لا يتهاوى أمام قوة متكبرة، ولا عرف اجتماعي سائـد، ولا تشـريع وضعي باطل محكم، ولا هوى مقبول عند الناس لا يستمد وجوده من الحق والإيمان.

هٰذه الحـالة ليست مجرد زعامة مفردة، أو نخوة عابرة، أو حماسة فائـرة، إنمـا هو الاستعلاء القائم على الحق الثابت المركوز في النفس

المؤمنة التي خضعت لقوله ـ تعالى :

﴿ولا تَهِنُوا ولا تَحْزَنوا وأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنينَ﴾ [آل عمران : ١٣٩].

إنه الحق الموصول بالله الحي الذي لا يموت.

إن للمجتمع عرفه العام، وضغطه الساحق، ووزنه الثقيل؛ على مَن ليس له ركن ركين، ومن يواجهه بلا سند متين.

وللاعتقادات السائدة والأفكار الشائعة وحي يصعب التفلُّت منه بغير حقيقة تصغر في ظلها تلك الاعتقادات والأعراف والأفكار، والتلقِّي من مصدر أكبر من مصدرها، وأعلى وأقوى.

ولذلك؛ فإن الذي يقف في وجه المجتمع، وعرفه العام، وقيمه، واعتباراته السائدة، وانحرافاته، ونزواته، يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن؛ ما لم يكن يستمد وقوفه من سند أقوى من البشر، وأثبت من الجبال، وأغلى من الحياة.

والله لا يترك المؤمن وحيداً ينوء به الثقل، ويهده الوهن والترقب، فيجيء الخطاب الإلهي الذي يملأ نفسه عزيمة وقوة وثباتاً واستعلاء:

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤمِنينَ﴾ [التوبة : ١٣].

إن المؤمن هو الأعلى مصدراً وسنداً. . . فما تكون الأرض كلها؟ وما تكون المجتمعات التي تعيش سفاداً؟ ومَن تكون القيم التي تعيث فساداً؟ وهو يتلقى من الله، وإليه يرجع، وعلى منهجه يسير.

والمؤمن هو الأعلى إدراكاً وتصوراً . . . فالإيمان بالله الواحد أكمل وأشمـل وأفضل من أي تصور سائد أو مذهب قائم، وحين تقاس صورة الحق المشرقة المتناسقة الباسقة، مع ما انتهت إليه المبادىء الأرضية من صور عارية كالحـة، تتجلى عظمـة الإيمان في النفس البشرية؛ كما لم يتجلَّ من قبل، فتتصاغر أمامه كالقط أو أقل.

ويضج الباطل ويصخب، ويرفع عقيرته، وينفش ريشه، وتحيط به الهالات المصطنعة التي تغشى على الأبصار والبصائر، فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائه دميم، وفجر كالح لئيم.

ولكن المؤمن ينـظر بنور الله، فينظر من علٍ إلى الباطل المنتفش المنتفخ، وإلى الجموع المخدوعة، فلا يهن ولا يحزن، ولا ينقص إصراره على الحق الذي معه، وثباته على المنهج الذي يتبعه، وكذلك لا تضعف رغبته في هداية الضالين والمخدوعين، ولا تفتر همته أمام سياط الجلاوزة والجزارين.

ويقف المؤمن شامخاً وهو يرى نهاية القافلة البائسة التي غرقت في شهواتها الهابطة، ومضت تعبُّ من نزواتها الخليعة:

﴿يَـوْمَ تُقَلَّبُ وجـوهُهُمْ في النَّـارِ يقـولـونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا الله وأَطَعْنا الرَّسولا . وقالوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وكُبَراءَنا فأَضَلُّونا السَّبيلا . رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِن العذابِ والْعَنْهُم لَعْناً كَبيراً﴾ [الأحزاب: ٦٦ ـ ٦٨].

إنها حكمة الله البالغة التي أرادت أن يقف الإيمان مجرداً من الزينة والـطلاء، عاطـلاً من عوامـل الإغـراء، لا قُربى من حاكم، ولا اعتـزاز

بسلطان، ولا هتاف لذة، ولا دغدغة شهوة. . . وإنما هو الجهد؛ ليقبل عليه مَن يقبل، وهو على يقين من نفسه أنه يريد الله والدار الآخرة، ولينصرف عنه من يبتغي المطامع والمنافع، ومن يشتهي الزينة، ويطلب المال والمتاع.

سلطان العلماء يبيع ملوك الأرض:

رأى سلطانُ العلماء أن المماليك الذين اشتراهم نجم الدين أيوب، ودفع ثمنهم من بيت مال المسلمين، واستعملهم في خدمته وجيشه، وتصريف شؤون الدولة، يمارسون البيع والشراء، وهو تصرف باطل؛ لأن المملوك لا ينفذ تصرفه، فأخذ سلطان العلماء لا يمضي لهم بيعاً ولا شراءً، فضايقهم ذٰلك، وشَجَر بينهم وبينه كلام حول هٰذا المعنى، فقال لهم بائع الملوك:

أنتم الآن أرقَّاء، لا ينفذُ لكم تصرف، وإن حكم الرق مستَصْحَبٌ عليكم لبيت مال المسلمين، وقد عزمتُ على بيعِكُم، فاحتدم الأمر، وبائع الملوك مصمِّم، لا يصحِّح لهم بيعاً ولا شراءً ولا نكاحاً، فتعطلت مصالحهم، وكان من جملتهم نائب السلطان الذي اشتاط غضباً، واحمر أنفه، فاجتمع مع شاكلته، وأرسلوا إلى بائع الملوك، فقال:

نعقد لكم مجلساً، ويُنادى عليكم لبيت مال المسلمين، ويحصل عتقكم بطريق شرعي، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه، فلم يرجع، فخرجت من السلطان كلمة فيها غِلظة، حاصلها الإنكار على الشيخ ـ رحمه الله ـ في دخوله في هٰذا الأمر، وأنه لا يتعلق به.

الثقة بين العلماء والعامة جسر إلى تغيير المنكر وإقامة حكم الله:

فلما استقرت كلمات الإنكار من السلطان في أذن سلطان العلماء؛ غضب لله ورسوله، وخرج حاملاً حوائجه على حمار، وأركب أهله على حمير أخر، ومشى خلفهم مهاجراً إلى الشام التي أُخرج منها من قبل.

وهنا تتحرك القاعدة الإسلامية العريضة التي رباها سلطان العلماء على عينه بالكلمة والقدوة، فلم يصل سلطان العلماء إلى نصف بريد إلا وغالب المسلمين وراءه، فلم تكد امرأة ولا صبي ولا رجل لا يؤبه إليه يتخلف، ولا سيما العلماء، والصالحين، والتجار، وأمثالهم، ولسان حالهم يقول:

لا خير في مصر إن لم يكن فيها العز بن عبد السلام وأمثاله، القائمون بالكتاب والسنة، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر، المجاهدون في سبيل الله، لا يخافون لومة لائم، ولا شماتة شامت.

ورُفِعَت التقارير حول هٰذه الظاهرة القاهرة، وكانت التوصيات:

متى راح ذهب ملكك.

فركب السلطان بنفسه، ولحقه، واسترضاه، وطيَّب قلبه، فرجع بشرط أن يُنادي على ملوك مصر وأمرائها، ويبيعهم.

فأرسل إليه كبيرهم ـ نائب السلطان ـ بالملاطفة، والشيخ لم يتغير؛ لأنه يريد إنفاذ حكم الله.

عندئذ، انزعج نائب السلطان، وأصدر قراره بتصفية الشيخ جسدياً، وقال:

كيف ينـادي علينـا هٰذا الشيخ ويبيعُنـا ونحن ملوك الأرض، والله لأضربنَّه بسيفي هٰذا، فركب بنفسه في جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ، والسيف في يده صلتاً، فطرق الباب، فخرج إليه ولد الشيخ، فرأى أمراً جلداً، فعاد إلى أبيه، وأخبره الحال.

فقام بائع الملوك ممتلئا إيماناً بربه؛ قائلاً لولده:

يا ولدي! أبوك أقلُّ من أن يُقْتَل في سبيل الله.

فلمـا رآه نائب السلطان؛ اهتـزت يده، وارتعدت فرائصه، وسقط السيف أرضاً، فبكى، وسأل الشيخ أن يدعو له؛ قائلاً:

يا سيدي! خيرا، آي شيء العمل؟

فقال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم.

قال نائب السلطان: ففيمَ تصرف ثمننا؟

قال الشيخ: في مصالح المسلمين.

قال نائب السلطان: من يقضيه؟

قال الشيخ: أنا.

وأنفـذ الله أمـره على يد الشيخ ـ رحمـه الله ـ، فباع الملوك منادياً عليهم واحداً تلو الآخر، وغالى سلطان العلماء في ثمنهم، وقبضه، وصرفه

في وجوه الخير التي تعود بالنفع على البلاد والعباد.

إن وقفة تأمل وتدبُّر عند هٰذه الحادثة التي لم يسمع بمثلها في التاريخ البشري، تجعلنا ندرك بَدَهيَّة عامة، لكنها حقيقة هامة، لم تزل خافية على أكثر العاملين في ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ جماعات وأفراداً.

وهي: لا بد لكل حكم من سند يسنده؛ لكي يقوم أولاً، ولكي يستمر ثانياً، فإذا كان الأمر كذٰلك... فأين هو السند الذي يقيم الحكم الإسلامي في العصر الحاضر، ثم يظل مسانداً له؛ لكي يستمر في الوجود؟

إننا لا ننتظر أن يقوم أعداء الله ـ سواء أكان الشرق الشيوعي، أم الغرب الصليبي ـ بمد يد العون للعاملين لإقامة حكم الله، فضلاً عن أن يسمحوا له بالقيام؛ لأنهم يتربَّصون بالمسلمين ليمنعوهم من ذٰلك.

إذن؛ لا بد أن يقوم السند للحكم الإسلامي من داخل الأمة المسلمة، ما دام لا يمكن أن يأتي من خارجها.

لكن حجم الانحراف الذي وقعت الأمة الإسلامية في حبائله خلال قرون كبير، حتى أضحى الإسلام غريباً في دياره، ووسط أدعيائه.

إنه انحراف في العقيدة، والأخلاق.... انحراف في كل العرى الرئيسة للإسلام.

وتجديد أمر الدين في واقع هٰذه الأمة، وإرجاعها إلى حقيقة الإسلام الصافية أمر لا يتم بين عشية وضحاها؛ كما يتوهم كثير من الناس، إنما

يحتاج حسب سنن الله في التغيير إلى وقت طويل؛ لأن البناء أصعب من الهدم، فكيف إذا كان الأمر يحتاج إلى هدم ثم بناء؟!

يحتاج أولاً إلى هدم الدَّخَن الذي شاب مفاهيم الإسلام الصافية، وهدم الوَهَن الذي أفسد القلوب.

ثم يحتاج إلى تربية الناس على ما تقتضيه الكلمة الطيبة من سلوك واقعي عملي في دنيا الناس.

وهنا يكشِّر المتعجلون عن أنيابهم، ويقطِّب المتحمِّسون على غير بصيرة حواجبهم، وتحمرُّ أنوف المتعصبين لمناهجهم، ويقولون:

أولاً: إن القاعدة الإسلامية موجودة، فنحن وسط قوم مسلمين.

ثانياً: هل من المعقول أن نربي كل الأمة على الإسلام، وكيف نربي وأعداء الله ينقضُّون علينا بين الفينة والأخرى، فيهلكون الحرث والنسل، فكلما ربينا جيلاً؛ أخذوه، وعذبوه، وقتلوه، و. . . .؟

أما بالنسبة للسؤال الأول؛ فإن ما يحدث بين الدعاة والأمة حقيقة هو تعاطف عارض حين يتعرض بعضهم للقتل أو التعذيب، ولكن هل صنعت الأمة شيئاً يشبه خروج القاهرة وراء سلطان العلماء؟! لم يكن شيئاً من ذلك.

إن هذا التعاطف العارض أمر يختلف عن وجود هدف مشترك بين الناس والدعاة، والهدف المشترك يجب أن يكون هو أن يُعْبَد الله وحده، وأن يكون الذِّلَّة والصَّغار على مَن خالف أمره.

وهٰذه قضية ما تزال غير واضحة المعالم لدى أكثر المسلمين بسبب الدَّخَن الذي كدَّرَ صفو الإسلام.

وأما بالنسبة للسؤال الثاني؛ فلم يقل أحد: إن الواجب تربية الأمة جميعها؛ لأنه أمر لا يتحقق في واقع الأرض، ومجتمع الصحابة الذي رباه رسول الله ﷺ على عينه، وغرسه بيده... لم يكن كله على مستوى واحد من العظمة والارتفاع.

إن المراد هو تربية قاعدة تحمل الأمانة قدر المستطاع، ولا شك أن القاعدة الواعية الواعدة آخذة في الاتساع، ولكنها لم تزل أضأل من الحجم اللازم للانطلاق؛ فضلاً عن الاستمرار.

وأعداء الله لن يستطيعوا استئصال شأفة هٰذه القاعدة، أو اجتثاث جذورها، ولو اجتمعوا له، وهم أنفسهم لا يزعمون ذٰلك، وإن تمنوه، إنما الذي يحدُث بقدر الله أنه بعد كل مذبحة يقومون بها، يأتي مد جديد ذو بأس شديد، وتتسع القاعدة على الدوام، ولو كره المجرمون، وهٰذه سنة من سنن الله بيَّنها رسول الله ﷺ بقوله:

«لا يزال الله يغرس في هٰذا الدين غرساً، يستعملهم في طاعته، إلى يوم القيامة»(٨).

---

(٨) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» (٩ / ٦١)، وابن ماجه (٨)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (١ / ٤٦)، وابن حبان (٨٩ ـ موارد)؛ من طريق الجرَّاح بن مُلَيح البَهراني: ثنا بكر بن زُرعة؛ قال: سمعت أبا عنبة الخولاني: (وذكره).

قلت: هٰذا إسناد حسن.

لقد اتفقت أحاديث الطائفة المنصورة على أنها مستمرة بثبات على الإسلام حتى يأتي أمر الله ، وهم كذلك[٩] .

وهذه صفة عظيمة استظهرها أهل العلم ؛ لأن فيها معجزة بيِّنة لرسول الله ﷺ ، حيث وقع ما أخبر به .

فقال المناوي في «فيض القدير» (٦ / ٣٩٥) :

وفيه معجزة بيِّنة ، فإن أهل السنة لم يزالوا ظاهرين في كل عصر إلى الآن ، فمن حين ظهرت البدع على اختلاف صنوفها ؛ من الخوارج ، والمعتزلة ، والرافضة ، وغيرهم ؛ لم يقم لأحد منهم دولة ، ولم تستمر لهم شوكة ، بل كلما أوقدوا ناراً للحرب ؛ أطفأها الله بنور الكتاب والسنة ، فلله الحمد والمنة .

واعلم أخا الإيمان أن صفة الثبات على الإسلام ، والاستمرار على منهج الحق ، نعمة عظيمة ، حبا الله بها أولياءه ، وصفوة خلقه ، وامتن عليهم بها .

فقال مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ :

﴿ولَـوْلا أنْ ثَبَّتْنـاكَ لقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهِم شيئاً قليلاً . إذاً لأذَقْناكَ ضِعْفَ الحَياةِ وضِعْفَ المماتِ ثُمَّ لا تَجِدُ لكَ عَلَيْنا نَصيراً﴾ [الإسراء : ٧٤ - ٧٥] .

---

(٩) وانظر كتابي «اللآلىء المنثورة بأوصاف الطائفة المنصورة» ، ففيه بيان شاف ، وتوضيح كاف .

وأمر الملائكة الكرام بتثبيت أهل الإيمان:

﴿إِذْ يُوحِيْ رَبُّكَ إِلى المَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتوا الذينَ آمَنوا﴾ [الأنفال: ١٢].

وقد شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ سُبُلاً؛ مَن سلكها؛ منحه الله صفة الثبات، وحباه بنعمة التثبيت، وهي:

١ ـ نصرة الدين:

قال الله ـ تعالى:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقدامَكُم﴾ [محمد: ٧].

٢ ـ القول الثابت السديد:

قال ـ تعالى:

﴿يُثَبِّتُ اللهُ الذينَ آمَنوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحَياةِ الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٣ ـ الإنفاق في سبيل الله:

قال ـ جلَّ ثناؤه:

﴿ومَثَلُ الذينَ يُنْفِقونَ أَمْوالَهُم ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ وتَثْبيتاً مِن أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

٤ ـ الدعاء:

قال ـ سبحانه:

﴿رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبراً وثَبِّتْ أَقْدامَنَا وانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرين﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال ـ جلَّ وعزَّ:

﴿وكـأَيِّنْ مِن نبيٍّ قاتَـلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ فَما وَهَنوا لِما أَصابَهُمْ في سَبيلِ اللهِ ومَا ضَعُفوا وما اسْتَكَانوا واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرينَ . وما كانَ قولَهُمْ إلا أَنْ قالـوا رَبَّنـا أَفْـرِغْ عَلَيْنـا صَبْـراً وثَبِّتْ أَقْـدامَنَا وانْصُرْنَا على القَوْمِ الكـافِـرينَ . فآتـاهُمُ اللهُ ثَوابَ الـدُّنْيـا وحُسْنَ ثوابِ الآخِـرَةِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

٥ ـ فعل المأمور به وترك المحظور:

كلما كان العبد أسدَّ قولاً، وأحسن عملاً؛ كان أكثر تثبيتاً.

قال ـ تبارك وتعالى:

﴿ولَوْ أَنَّهُمْ فَعَلوا ما يُوعَظُونَ بِهِ لَكانَ خَيْراً لهُمْ وأَشَدَّ تَثْبيتاً . وإِذاً لآتَيْناهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْراً عَظيماً . ولَهَدَيْناهُم صِراطاً مُسْتَقيماً . ومَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأولٰئكَ مَعَ الذينَ أَنْعَمَ اللهُ عليهِمْ مِن النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ وحَسُنَ أُولٰئكَ رَفيقاً . ذلكَ الفَضْلُ مِن اللهِ وكَفَى باللهِ عَليماً . يا أيُّها الذينَ آمَنوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فانْفِرُوا ثُباتٍ أَوِ انْفِروا جَميعاً﴾ [النساء: ٦٦ ـ ٧١].

٦ ـ تدبر القرآن الكريم:

واعلم أيهـا العبـدُ المسلم أن مادةَ التثبيتِ وأصلهُ من كتـاب الله

ـ سبحانه وتعالى ، وسنة رسوله ﷺ .

قال ـ تعالى :

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِن رَبِّكَ بالحَقِّ لِيُثَبِّتَ الذينَ آمَنوا وهُدًى وبُشْرَى للمؤمِنينَ﴾ [النحل: ١٠٢].

٧ ـ التأسِّي بالصالحين :

قال ـ تعالى :

﴿وكُلًّا نَقُصُّ عليكَ مِن أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فؤادَكَ وجاءَكَ في هٰذه الحَقُّ ومَوْعِظةٌ وذِكْرَى للمُؤْمِنينَ﴾ [هود: ١٢٠].

وهٰذه الصفة توحي أن هٰذه الطائفة المنصورة التي هذَّبها رب العالمين، وصنعها على عينه، وتعهدها بمعيته، لن يستطيع أعداؤها أن يستبيحوا بيضتها، ويجتثُّوا جذورها، ويستأصلوا شأفتَها، ولو اجتمعوا لها، وكان بعضهم لبعض ظهيراً؛ لأن أصلها ثابت، وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، رجالاً يحبهم ربهم ويحبونه.

ولذٰلك ستبقى شجىً في حلق أهل البدع والأهواء، وغصة وعذاباً أليماً؛ لأنها تستمد بقاءها من منهج خالد، أراد الله له البقاء والاستمرار، ولو كره المشركون.

وهٰكذا تبين لنا أننا مأمورون أن نتعامل مع سنن الله في التغيير، وإن كنا لا نفتر عن التطلُّع إلى رحمة الله في كل لحظة... تلك السنن التي صرح بها القوي العزيز في كتابه:

﴿وأَعِدُّوا لهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ ومِن رِباطِ الخَيْلِ تُرْهِبونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقوله:

﴿وإِنْ يُرِيدوا أَنْ يَخْدَعوكَ فإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُو الذي أَيَّدَكَ بنَصْرِهِ وبالمؤمِنينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ليشد أنظارنا إلى حقيقتين هامتين، وركيزتين لنصر الله:

الأولى: أنه لا بد من وجود مؤمنين مجاهدين، يكونون ستاراً لقدرة الله في الأرض.

والأخرى: لا بد لأولئك المؤمنين أن يعدوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

عندئذ يأتي النصر والتمكين والتثبيت... لا عجزاً من الله ـ سبحانه ـ أن ينصر دينه بغير جهد بشري، ولكن هكذا جرت سنته ـ سبحانه:

﴿ولَوْ يَشَاءُ اللهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ ولٰكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ ببعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وهٰذه السنن التي نحن مأمورون بالتعامل معها، تنص على وجوب إقامة القاعدة المسلمة، ثم نتوقع التمكين في الأرض بعد جهد وجهاد، وصبر ومصابرة.

عالمٌ تهابه الملوك:

ولقد ألقى الله ـ سبحانه وتعالى ـ على سلطان العلماء مهابة، فخافه الملوك.

فقد اتفق أن سلطان العلماء أسقط عدالة فخر الدين بن عثمان بن شيخ الشيوخ أستاذ دار الملك نجم الدين لمعصية أحدثها ـ سيأتي بيانها ـ فجهز السلطان نجم الدين أيوب رسولاً إلى الخليفة العباسي المستعصم ببغداد، فلما وصل رسول السلطان إلى الديوان، ووقف بين يدي الخليفة، وأدى الرسالة؛ خرج إليه مَن سأله:

هل سمعت هٰذه الرسالة من السلطان؟

فقال رسول السلطان:

لا، ولكن حمَّلَنيها عنِ السلطان فخرُ الدين ابن شيخ الشيوخ أستاذ الدار.

فقال الخليفة:

إن المذكور أسقطه ابن عبد السلام، فنحن لا نقبل روايته.

فعاد رسول السلطان إلى السلطان، فشافهه بالرسالة، ثم انقلب إلى بغداد، وأدَّاها.

فرح الملوك بموته:

لقد هابت الملوك سلطان العلماء حياً وميتاً، فلما اخترمته المنية،

ورجع إلى ربه بنفس راضية مرضية؛ قال السلطان[10]:

لم يستقر ملكي إلا الساعة؛ لأنه لو أمر الناس فيَّ بما أراد؛ لبادروا إلى امتثال أمره.

ولكن السلطان رغم هذه النشوة الغامرة التي أخذته، قد استقر في اعتقاده أن المسلمين خسروا بموت سلطان العلماء حصناً حصيناً، وركناً ركيناً، ولٰذلك لم يستطع إخفاء تأسُّفه وحزنه على وفاة سلطان العلماء، فقال:

لا إلٰه إلا الله، ما اتفقت وفاة الشيخ إلا في دولتي.

وقد صوَّر هٰذا الفصل تصويراً بليغاً رائعاً الكاتب الإسلامي مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله ـ في كتابه «وحي القلم» **(٣ / ٥٨ ـ ٦٦)**، بعنوان: (أمراء للبيع)، فقال:

قال الشيخ تاج الدين محمد بن علي ـ الملقَّب: طوير الليل ـ أحد أئمة الفقهاء بالمدرسة الظاهرية بالقاهرة:

كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقي الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد لا يخاطب السلطان إلا بقوله: يا إنسان! فما يخشاه، ولا يتعبد له، ولا يَنْحَلُه ألقاب الجبروت والعظمة، ولا يزينه بالنفاق، ولا يداجيه؛ كما يصنع غيره من العلماء.

وكان هٰذا عجيباً، غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب

---

(١٠) هو الظاهر بيبرس.

أحداً قط من عامة الناس إلا بهٰذا اللفظ عينه: يا إنسان! فما يعلو بالسلطان والأمراء، ولا ينزل بالضعفاء والمساكين، ولا يرى أحسن ما في هٰؤلاء وهٰؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية!

ثم كان لا يعظِّم في الخطاب إلا أئمة الفقهاء، فإذا خاطب منهم أحداً؛ قال له: يا فقيه! على أنه لم يكن يسمح بهٰذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرفعة.

ثم يخص علاء الدين بن الباجي وحده بقوله: يا إمام! إذ كان آية من آيات الله في صناعة الحجة، لا يكاد يقطعه أحد في المناظرة والمباحثة، فهو كالبرهان، إجلاله إجلالُ الحق؛ لأن فيه المعنى، وتثبيت المعنى.

وقلت له يوماً: يا سيدي! أراك تخاطب السلطان بخطاب العامة، إن علوتَ؛ قلتَ: يا إنسان! وإن نزلت قلت: يا إنسان! أفلا يسخِطُه هٰذا منك وقد تذوَّق حلاوةَ ألفاظ الطاعة والخضوع، وخصَّه النفاقُ بكلمات هي ظلُّ الكلمات التي يوصف الله بها، ثم جعله المُلْك إنساناً بذاته في وجود ذاته، حتى أصبح من غيره كالجبل والحصاة؛ يستويان في العنصر، ويتباينان في القدرة، وأقله ـ مهما قلَّ ـ هو أكثرها ـ مهما عظمت ـ، ووجوده شيء ووجودها شيء آخر؟!

فتبسم الشيخ، وقال:

يا ولدي! أين هٰذا؟ إننا نفوس لا ألفاظ، والكلمة من قائلها هي بمعناها في نفسه لا بمعناها في نفسها، فما يحسُن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يردُّه الشرع عليه، ولو نافق الدين؛ لبطل أن يكون ديناً، ولو نافق

العـالم الـديني؛ لكان كل منافق أشرف منه، فلطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود، والمنافق رجل مغطى في حياته، ولكن عالم الدين رجل مكشوف في حياته لا مغطى، فهو للهداية لا للتلبيس، وفيه معاني النور لا معاني الظلمة، وذاك يتصل بالدين من ناحية العمل، فإذا نافق؛ فقـد كذب، والعـالم يتصـل بالـدين من ناحية العمل وناحية التبيين، فإذا نافق؛ فقد كذب وغش وخان.

وما معنى العلماء بالشرع إلا أنهم امتداد لعمل النبوة في الناس دهراً بعد دهر، ينطقون بكلمتها، ويقومون بحجتها، ويأخذون من أخلاقها؛ كما تأخذ المرآة النور، تحويه في نفسها، وتلقيه على غيرها، فهي أداة لإظهاره وإظهار جماله معاً.

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء، وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف؟!

أولٰئك في أخلاقهم كاللوح من البلور، يُظهر النورُ نفسُه فيه، ويُظْهِرُ حقيقتَه البلورية، وهٰؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشب، يُظْهِرُ النورُ حقيقتَه الخشبيةَ لا غير!

وعالم السوء يفكر في كتب الشريعة وحدها، فيسهل عليه أن يتأوَّل ويحتال، ويغيِّر ويبدِّل، ويظهِر ويُخفي، ولكن العالم الحق يفكر مع كتب الشريعة في صاحب الشريعة، فهو معه في كل حالة، يسأله: ماذا تفعل؟ وماذا تقول؟

والرجل الدينيّ لا تتحوَّل احلاقه، ولا تتفاوت، ولا يجيءُ كل يوم من

حوادث اليوم، فهي بأخلاقه كلها، لا يكون مرة ببعضها ومرة ببعضها، ولن تراه مع ذوي السلطان وأهل الحكم والنعمة كعالم السوء هٰذا الذي لو نطقت أفعاله لقالت لله بلسانه: هم يعطوني الدرهم والدنانير، فأين دراهمك أنت ودنانيرك؟!

إن الدينار يا ولدي إذا كان صحيحاً في أحد وجهيه دون الآخر، أو في بعضه دون بعض؛ فهو زائف كله.

وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هٰؤلاء يتعاملون مع قوة الهضم فيهم، فينزِلون بذٰلك منزلة البهائم؛ تقدِّم أعمالها لتأخذ لبطونها، والبطن الآكل في العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله.

فإذا رأيت لعلماء السوء وقاراً؛ فهو البلادة، أو رقة؛ فسمِّها الضعف، أو مُحاسنة؛ فقل: إنها النفاق، أو سكوتاً عن الظلم؛ فتلك رشوة يأكلون بها!

قال الإمام:

وما رأيتُ مثل شيخي سلطان العلماء عز الدين بن عبدالسلام؛ فلقد كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته؛ كما يصنع جسمه الحياة، فلا يبالي هلك فيه أو عاش، إذ هو في الدم كالقلب، لا تناله يد صاحبه، ولا يد غيره، ولم يتعلق بمال، ولا جاه، ولا ترف، ولا نعيم، فكان تجرُّده من أوهام القوة لا يغلب، وانتزع خوف الدنيا من قلبه، فعمرته الروح السماوية التي تخيف كل شيء ولا تخاف، وكان بهٰذه الروح كأنه تحويل وتبديل في طباع الناس، حتى قال الملك الظاهر بيبرس ـ وقد

رأى كثرة الخلق في جنازته حين مرت تحت القلعة ـ:

الآن استقـرَّ أمري في الملك، فلو أن هٰذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج عليَّ؛ لانتزع مني المملكة.

وكان سلطانه في دمشق الصالحَ إسماعيلَ، فاستنجد بالإفرنج على الملك نجم الـدين أيوب سلطان مصـر، فغضب الشيخ، وأسقط اسم الصالح من الخطبة، وخرج مهاجراً، فأتبعهُ الصالحُ بعضَ خواصه؛ يتلطَّف به، ويقول له:

ما بينَـك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه أكثر مما كنت عليه؛ إلا تنخشع للسلطان، وتقبل يده.

فقال له الشيخ:

يا مسكين! أنا لا أرضى أن يقبِّل السلطان يدي! أنتم في واد، وأنا في واد.

ثم قدم إلى مصر في سنة (٦٣٩)، فأقبل عليه السلطان نجم الدين أيوب، وتحفَّى به، وولاَّه خطابة مصر وقضاءَها.

وكان أيوب ملكاً شديد البأس، لا يجسر أحد أن يخاطِبَه إلا مجيباً، ولا يتكلم أحد بحضرته ابتداءً، وقد جمع من المماليك الترك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته، حتى كان أكثر أمراء عسكره منهم، وهم معروفون بالخشونة، والبأس، والفظاظة، والاستهانة بكل أمر، فلما كان يوم العيد؛ صعد إليه الشيخ وهو يعرض الجند، ويظهر ملكه وسطوته، والأمراء يقبِّلون

الأرض بين يديه، فناداه الشيخ بأعلى صوته؛ ليسمع هٰذا الملأ العظيم:

يا أيوب!

ثم أمره بإبطال منكر انتهى إلى علمه في حانة تباع فيها الخمر! فرسم السلطان لوقته بإبطال الحانة، واعتذر إليه.

فحدثني الباجي قال:

سألتُ الشيخ بعد رجوعه من القلعة ـ وقد شاع الخبر ـ، فقلت: يا سيدي! كيف كانت الحال؟!

قال: يا بني! رأيتُه في تلك العظمة، فخشيتُ على نفسه أن يدخُلَها الغرورُ، فتُبْطِرَهُ، فكان ما باديته به.

قلت: أما خِفته؟

قال: يا بني! استحضرتُ هيبة الله تعالى، فكان السلطان أمامي كالقط، ولو أن حاجة من الدنيا في نفسي؛ لرأيتُه الدنيا كلها، بيد أني نظرتُ بالآخرة، فامتدت عيني فيه إلى غير المنظور للناس، فلا عظمة، ولا سلطان، ولا بقاء، ولا دنيا، بل هو لا شيء في صورة شيء.

نحن يا ولدي مع هٰؤلاء كالمعنى الذي يصحح معنى آخر، فإذا أمرناهم؛ فالذي يأمرهم فينا هو الشرع لا الإنسان، وهم قوم يرون لأنفسهم الحق في إسكات الكلمة الصحيحة، أو طمسها، أو تحريفها، فما بدٌّ أن يُقابَلوا من العلماء والصالحين ممَّن يرون لأنفسهم الحق في إنطاق هٰذه الكلمة، وبيانها، وتوضيحها.

فإذا كان ذٰلك؛ فها هنا المعنى بإزاء المعنى، فلا خوف، ولا مبالاة، ولا شأن للحياة والموت.

وإنما الشر كل الشر أن يتقدم إليهم العالم لحظوظ نفسه ومنافعها، فيكون باطلاً مزوراً في صورة الحق، وها هنا تكون الذات مع الذات، فيخشع الضعف أمام القوة، ويذل الفقر بين يدي الغنى، وترجو الحياة لنفسها، وتخشى على نفسها، فإذا العالم من السلطان كالخشبة البالية النخرة حاولت أن تقارع السيف!

كلا يا ولدي! إن السلطان والحكام أدوات يجب تعيين عملها قبل إقامتها، فإذا تفككت واحتاجت إلى مسامير؛ دُقَّت فيها المسامير، وإذا انفتق الثوب؛ فمن أين للإبرة أن تسلكه بالخيط الذي فيها إذا هي لم تخزه؟

إنَّ العالم الحق كالمسمار، إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله؛ كفرت به كل خشبة. . .

قال الإمام تقي الدين:

وطغى الأمراء من المماليك، وثقلت وطأتهم على الناس، وحيثما وُجدت القوة المسلطة المستبدة؛ جعلت طغيانها واستبدادها أدباً وشريعة؛ إلا أن تقوم بإزائها قوة معنوية أقوى منها، ففكر شيخُنا في هٰؤلاء الأمراء، وقال:

إن خداع القوة الكاذبة لشعور الناس باب من الفساد، إذ يحسبون كل حسن منها هو الحسن ـ وإن كان قبيحاً في ذاته ولا أقبح منه، ويرون

كل قبيح عندها هو القبيح ـ وإن كان حسناً ولا أحسن منه.

وقال: ما معنى الإمارة والأمراء؟ وإنما قوة الكل الكبير هي عماد الفرد الكبير، فلكل جزء من هٰذا الكل حقه وعمله، وكان ينبغي أن تكون هٰذه الإمـارة أعمالاً نابغة قد كبرت، وعظمت، فاستحقت هٰذا اللقب بطبيعة فيها؛ كطبيعة أنَّ العشرة أكثر من الواحد، لا أهواء، وشهوات، ورذائل، ومفاسد؛ تتخذ لقبها في الضعفاء بطبيعة كطبيعة أن الوحش مفترس.

وفكر الشيخ، فهداه تفكيره إلى أن هٰؤلاء الأمراء مماليك، فحكم الرق مستصحبٌ عليهم لبيت مال المسلمين، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرقيق.

بلغهم ذٰلـك، فجـزعوا له، وعظُم فيه الخطب عليهم، ثم احتدم الأمر، وأيقنوا أنهم بإزاء الشرع لا بإزاء القاضي ابن عبدالسلام.

وأفتى الشيخ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء ولا زواج ولا طلاق ولا معـاملة، وأنه لا يصحح لهم شيئاً من هٰذا حتى يُباعوا، ويحصل عتقهم بطريق شرعي.

ثم جعلوا يتسبَّبـون إلى رضـاه، ويتحمَّلون عليه بالشفاعات، وهو مصرٌّ، لا يعبأ بجلالة أخطارهم، ولا يخشى اتِّسامه بعداوتهم.

فرفعوا الأمر إلى السلطان، فأرسل إليه، فلم يتحول عن رأيه وحكمه.

واستبشع السلطان فعله، وحنق عليه، وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه،

وقبَّح عمله وسياسته وما تطاول إليه، وهو رجل ليس له إلا نفسه، وما تكاد تصل يده إلى ما يقيمه، وهم وافرون، وفي أيديهم القوة، ولهم الأمر والنهي.

وانتهى ذٰلك إلى الشيخ الإمام، فغضب، ولم يبالِ بالسلطان، ولا كبُر عليه إعراضه، وأزمع الهجرة من مصر، فاكترى حميراً أركب أهله وولده عليها، ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشام، فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف بريد، حتى طار الخبر في القاهرة، ففزع الناس، وتبعوه؛ لا يتخلف منهم رجل ولا امرأة ولا صبي، وصار فيهم العلماء والصلحاء والتجار والمحترفون، كأنَّ خروجه خروج نبي من المؤمنين به، واستعلنت قوَّة الشرع في مظهرها الحاكم الآمر من هٰذه الجماهير، فقيل للسلطان:

إن ذهب هٰذا الرجل؛ ذهب ملكك.

فارتاع السلطان، فركب بنفسه، ولحق بالشيخ يترضَّاه ويستدفع به غضب الأمَّة، وأطلق له يأمر بما شاء، وقد أيقن أنه ليس رجل الدينار والدرهم والعيش والجاه، ولبس طيلسان العلماء؛ كما يلصق الريش على حجر في صورة الطائرة.

ورجع الشيخ، وأمر أن يُعقد المجلس، ويُجمَع الأمراء، ويُنادى عليهم للمساومة في بيعهم، وضرب لذٰلك أجلاً بعد أن يكون الأمر قد تعالَمه كل القاهرة؛ ليتهيأ مَن يتهيأ للشراءِ والسَّوْم في هٰذا الرقيق الغالي!

وكان من الأمراء المماليك نائب السلطنة، فبعث إلى الشيخ يلاطفه ويسترضيه، فلم يعبأ الشيخ به؛ فهاج هائجه، وقال:

كيف يبيعُنا هٰذا الشيخ، وينادي علينا، ويُنْزِلُنا منزلة العبيد، ويفسد محلَّنا من الناس، ويبتذل أقدارنا؛ ونحن ملوك الأرض؟! وما الذي يفقد هٰذا الشيخ من الدنيا، فيدرك ما نحن فيه؟! إنه يفقد ما لا يملك، ويفقد غير الموجود، فلا جرَمَ لا يبالي ولا يرجع عن رأيه ما دام هٰذا الرأي لا يمرُّ في منافعه، ولا شهواته، ولا في أطماعه، كالذين نراهم من علماء الدنيا.

أما والله لأضرِبَنَّه بسيفي هٰذا، فما يموت رأيه وهو حي.

ثم ركب النائب في عسكره، وجاء إلى دار الشيخ، واستلَّ سيفه، وطرق الباب، فخرج ابنه عبداللطيف، ورأى ما رأى، فانقلب إلى أبيه، وقال له: انج بنفسك، إنه الموت، وإنه السيف، وإنه. . .، وإنه.

فما اكترث الشيخ لذٰلك، ولا جزع، ولا تغير، بل قال له:

يا ولدي! أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله!

وخرج لا يعرف الحياة ولا الموت، فليس فيه الإنساني، بل الإلٰهي.

ونظر إلى نائب السلطنة وفي يده السيف، فانطلقت أشعة عينيه في أعصاب هٰذه اليد، فيبست، ووقع السيف منها.

وتناوله بروحه القوية، فاضطرب الرجل، وتزلزل، وكأنما تكسر من أعصابه، فهو يرعد، ولا يستقرُّ، ولا يهدأ.

وأخذ النائب يبكي ويسأل الشيخ أن يدعو له، ثم قال:

يا سيدي! ما تصنع بنا؟

قال الشيخ: أنادي عليكم وأبيعكم.

وفيما تصرف ثمننا؟

في مصالح المسلمين.

ومن يقبضه؟

أنا.

وكان الشرع هو الذي يقول: أنا، فتم للشيخ ما أراد، ونادى على الأمراء واحداً واحداً، واشتطَّ في ثمنهم، ولا يبيع الواحد منهم حتى يبلغ الثمن آخر ما يبلغ.

وكان كل أمير قد أعدَّ من شيعته جماعة يستامونه ليشتروه...

ودُمِغَ الظلم والنفاق والطغيان والتكبر والاستطالة على الناس بهٰذه الكلمة التي أعلنها الشرع:

أمراء للبيع... أمراء للبيع...!



الفصل الثالث
سلطان العلماء والجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وهو فرض عين على كل مسلم؛ إما بالقلب، أو باللسان، أو بالمال، أو باليد، أو جميعاً.

والمسلم يجاهد بنوع من هٰذه الأنواع؛ حسب قدرته، وطاقته، وموقعه.

وأخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنه:

﴿**اشْتَرَى مِن المُؤمِنينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُم**﴾ [التوبة: ١١١].

وأعاضهم عليها:

﴿**بِأَنَّ لهُمُ الجَنَّة**﴾ [التوبة: ١١١].

أودع الله ـ سبحانه ـ هٰذا العقد والوعد أفضل كتبه المنزلة:

﴿**وَعْداً عليهِ حَقّاً في التَّوْراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ**﴾ [التوبة: ١١١].

وأكدّه وبشّرهم:

﴿**ومَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِن اللهِ فاسْتَبْشِروا بِبَيْعِكُمُ الذي بايَعْتُم بهِ وذٰلك**

الفَوْزُ العَظيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فليتأمل العاقد مع ربه هٰذه الصفة ما أعظم خطرها، وما أجل أمرها، فإن الله ـ جل وعز ـ هو الـذي اشتـرى، والثمن جنـات النعيم، والفوز المقيم، والذي جرى على يده هٰذا العقد: أشرف رسله، وأكرمهم عليه من الملائكة والبشر، وإن سلعة هٰذا شأنها لقد هيئت لأمر عظيم، وخطب جسيم.

ولمـا كَثُـر المُدَّعون؛ طولبوا بإقامة البيِّنة على صحة دعواهم، فلو يُعطى الناس بدعواهم؛ لفسدت السماوات والأرض وما بينهن.

وتنـوع المُـدَّعـون بالشهـود، فقيل لهم: لا تقام البينة، ولا تثبت الدعوى، ولا يصح البرهان؛ إلا بشهادة:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

فتأخرت الخلائق كلها، وثبت أتباع الرسول ﷺ الذين درجوا على أثره في العقيدة والسلوك والتربية، وفهموا كتاب الله، وسنة رسوله، بفهم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وعندئذ طولبوا بعدالة الشهادة، وقيل: لا تثبت العدالة إلا بتزكية:

﴿يُجاهِدُونَ في سَبيلِ اللهِ ولا يَخافونَ لومَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

لَقَدْ حرَّك داعي الله النفوسَ الأبيَّةَ، والهمم العالية:

فَحَيَّهَـلا إِنْ كُنْتَ ذا هِمَّـةٍ فَقَـدْ
حَدَا بكَ حادِي الشَّوْقِ فاطْوِ المَراحِلَا

فهَيِّىء نفسك أيها العبد المؤمن:

قَدْ هَيَّؤوكَ لأمْـرٍ لَوْ فَطِنْـتَ لهُ
فارْبَـأْ بِنَفْسِكَ أَنْ تَرْعَى مَعَ الهَمَلِ

واعلم أن الطائفة المنصورة؛ لا تبرح تقاتل على الدين، حتى يأتي أمر الله وهي كذلك، فاسلك سبيلها واهتد بدليلها: كتاب الله وسنة رسوله بفهم خير القرون؛ من الصحابة الأكرمين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين؛ لتفوز بالجنة، وتنجو من النار، يوم يقال للفرق الهالكة: ادخلوا النار مع الداخلين.

ولكن! اعلم أن سلعـة الله غالية، وأن مهرها بذل النفس والنفيس لمالكهما الذي اشتراهما من المؤمنين.

وآيْم الله إنها ما هَزُلَتْ حتى يَسْتامها المفلسون المعرضون الجبناء، وما كَسَدَت حتى يبتاعها نسيئة المُعْسِرون المفلسون.

لقد أقيمَتْ للعرضِ في السوقِ لمن يريـد، وقيل: هل من مزيد؟ فلم يرض ربُّها لها بثمن دون بذل حبل الوريد.

ولما كان الجهاد هو بذل الوسع في حصول محبوب الحق، ودفع ما يكرهه الحق، فالجهاد في سبيل الله؛ لإقرار منهج الله في الأرض، وليكون الـدين كله لله؛ لتحقيق الخير والصـلاح والنمـاء... هو صفـة الطائفة المنصورة التي صنعها الله على عينه، واستعملها بطاعته.

إنهـا تجـاهـد في سبيل الله، لا في سبيل قومهـا، أو نفسهـا، أو

وطنهـا. . . في سبيل الله؛ لتحقيق منهج الله، وتنفيذ شريعته. . . ليس لأنفسهم حظ، إنما هو لله وحده، لا شريك له.

لذلك، فهم لا يخافون لومة لائم. . . وفيم الخوف من لوم الناس، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس، وعرف البشر، وهم يتَّبعون السنة، ويبتغون العزة، ويعرضون منهج الله للحياة؟

إنما يخشى الناسَ ولومَهم من يستمد مقاييسه وأحكامه وحركته من أهـواء الناس، أما من يعود إلى موازين الله؛ ليجعلها المسيطرة المحركة الدافعة لأهواء البشر، وشهواتهم، وقيمهم، فيما يبالي ما يقول الناس، وما يفعلون، كائناً هؤلاء الناس مَن كانوا، وكائناً واقع الناس ما كان.

إنهـا سمة المؤمنين المحبين لله وسوله. . . إنه الاطمئنان إلى الله يملأ قلوبهم، يحدوهم إلى الجهاد في سبيل الله بكل أنواعه، وأشكاله، ودرجاته. . . وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

عين جالوت:

داهم المغـول بغـداد دار الخلافة العباسية، فجعلوها خراباً يباباً، وقتلوا الخليفة وعلماء المسلمين، وداسوهم بسنابك الخيل، وذلك بتواطؤ من الحركات الباطنية التي زينت للخليفة الصلح، وهي تعلم مصيره، بل أشارت على هولاكو بذلك.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «البداية والنهاية» (١٣ / ٢٠١ ـ ٢٠٢):

وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي، وذٰلك أنه لما كان في السنة الماضية[11]؛ كان بين أهل السنة والرافضة حرب عظيمة نُهِبَت فيها الكرخ، ومحلة الرافضة، حتى نُهبت دور قرابات الوزير، فاشتدَّ حنقه على ذلك، فكان هٰذا مما أهاجه على أن دبَّر على الإسلام وأهله ما وقع من الأمر الفظيع الذي لم يؤرَّخ أبشع منه منذ بنيت بغداد، وإلى هٰذه الأوقات.

ولهٰذا كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه، وخدمه وحشمه، فاجتمع بالسلطان هولاكو خان ـ لعنه الله، ثم عاد فأشار إلى الخليفة بالخروج إليه، والمثول بين يديه؛ لتقع المصالحة، على أن يكون نصف خراج العراق لهم، ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج في سبع مئة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل السلطان هولاكو خان؛ حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفساً، فخلص الخليفة بهٰؤلاء المذكورين، وأُنزل الباقون عن مراكبهم، ونُهبت، وقُتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدي هولاكو، فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال: إنه اضطرب كلامُ الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت.

ثم عاد إلى بغداد، وفي صحبته خوجه نصير الدين الطوسي، والوزير ابن العلقمي، وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئاً كثيراً من الذهب والحلي والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة.

---

(١١) أي سنة (٦٥٥ هـ)؛ لأن بغداد سقطت من يد التتار سنة (٦٥٦ هـ).

وقد أشار أولٰئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو أن لا يصالح الخليفة، وقال الوزير:

متى وقع الصلح على المناصفة، لا يستمر هٰذا إلا عاماً أو عامين، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذٰلك.

وحسنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى السلطان هولاكو؛ أمر بقتله.

ويقال: إن الذي أشار بقتله الوزير ابن العلقمي، والمولى نصير الدين الطوسي، وكان النصير عند هولاكو قد استصحبه في خدمته لما فتح قلاع الألموت، وانتزعها من أيدي الإسماعيلية، وكان النصير وزيراً لشمس الشموس، ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين، وكانوا ينسبون إلى نزار بن المستنصر العبيدي.

وانتخب هولاكو النصير ليكون في خدمته كالوزير المشير، فلما قدم هولاكو، وتهيَّب من قتل الخليفة، هوَّن عليه الوزير ذٰلك، فقتلوه رفساً، وهو في جوالق؛ لئلا يقع على الأرض شيء من دمه، خافوا أن يؤخذ بثأره فيما قيل لهم. وقيل: بل خنق. ويقال: بل أغرق. فالله أعلم.

فباؤوا بإثمه وإثم من كان معه؛ من سادات العلماء، والقضاة، والأكابر، والرؤساء، والأمراء، وأولي الحل والعقد ببلاده.

ومالوا على البلد، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال، والنساء، والولدان، والمشايخ، والكهول، والشبان، ودخل كثير من الناس في الآبار

وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لا يظهرون.

وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات، ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار، إما بالكسر، وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم، فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وكذلك في المساجد، والجوامع، والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة؛ من اليهود، والنصارى، ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي، وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً بذلوا عليه أموالاً جزيلة، حتى سلموا وسلمت أموالهم.

وعادت بغداد بعدما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب، ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم في خوف، وجوع، وذلة، وقلة.

وكان الوزير ابن العلقمي قبل هذه الحادثة يجتهد في صرف الجيوش، وإسقاط اسمهم من الديوان، فكانت العساكر في آخر أيام المستنصر قريباً من مئة ألف مقاتل؛ منهم من الأمراء من هو كالملوك الأكابر الأكاسر، فلم يزل يجتهد في تقليلهم، إلى أن لم يبق سوى عشرة آلاف، ثم كاتب التتار، وأطمعهم في أخذ البلاد، وسهَّل عليهم ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعاً منه في أن يزيل السنة بالكلية، وأن يظهر البدعة الرافضة، وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين، والله غالب على أمره، وقد رد كيده في نحره، وأذله بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشاً للتتار بعدما كان وزيراً

للخلفاء[١٢]، واكتسب إثم من قتل ببغداد من الرجال، والنساء، والأطفال، فالحكم لله العلي الكبير رب الأرض والسماء. أ. هـ.

ودب الوهن في القلوب، وجَبُن أهل مصر عن ملاقاة التتار، وضاقت بعساكر السلطان قطز الأرض، فلجؤوا إلى سلطان العلماء ـ وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر ـ فكان ـ رحمه الله ـ سراجاً أنار لهم طريقاً أفضت إلى النصر ـ بإذن الله ـ فقال:

اخرجوا، وأنا أضمن لكم على الله النصر.

فقال السلطان:

إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار.

فقال سلطان العلماء:

إذا أحضرت ما عندك وعند حريمك، وأحضر الأمراءُ ما عندهم من الحلي الحرام اتِّخاذه، وضربته سكة ونقداً، وفرقته في الجيش، ولم يقم بكفايتهم، ذلك الوقت اطلب القرض، وأما قبل ذلك فلا.

فأحضر السلطان والعساكر كلهم ما عندهم من ذلك بحضرة سلطان العلماء، وكانت له عندهم عظمة، وله في أنفسهم مهابة، بحيث لا يستطيعون مخالفته، فامتثلوا ما قاله.

ولقد كانت موقعة عين جالوت سنة (٦٥٨ هـ) التي أبلى فيها السلطان قطز، وسلطان العلماء الذي بلغ سنتئذ من العمر عتياً، إذ كانت

---

(١٢) هذا من أمثلة التأريخ على التعليق (رقم ٧).

وفاته سنة (٦٦٠ هـ)، وله من العمر (٨٣ سنة)، ولكن كبر سنه لم يمنعه من الخروج في سبيل الله؛ لأنه يدرك معنى قول الله:

﴿انْفِروا خِفافاً وثِقالاً وجَاهِدُوا بأَمْوالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ في سَبيلِ اللهِ ذلكمْ خَيرٌ لكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمونَ﴾ [التوبة: ٤١].

أقول: أبلى السلطان وسلطان العلماء وعساكر المسلمين بلاءً حسناً، وصَدَقوا الله فصدَّقَهم، وأبرَّ الله قسم سلطان العلماء، فهزم المغول، وولوا الأدبار.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «البداية والنهاية» (١٣ / ٢٢١):

فكان اجتماعهم على عين جالوت يوم الجمعة، الخامس والعشرين من رمضان، فاقتتلوا اقتتالاً عظيماً، فكانت النصرة ـ ولله الحمد ـ للإسلام وأهله، وهزمهم المسلمون هزيمة هائلة، وقُتِلَ أمير المغول كتبغانوين وجماعة من بيته. أ. هـ.

إن نظرة عجلى إلى سقوط عاصمة الخلافة سنة (٦٥٦ هـ) بيد المغول، وانتصار المسلمين الساحق على التتار في موقعة عين جالوت سنة (٦٥٨ هـ)، تبين لنا أن أمة الإسلام وقتئذ لم تهزم داخلياً، فقناعاتها بأن الإسلام مصدر قوتها ومنبع عزتها قوية.

ويزيد هذا الأمر وضوحاً أن المغول، تلك القولة الساحقة المنتصرة يومئذ، لم تستطِع أن تجتال الأمة الإسلامية عن موارد عزتها، بل إن المسلمين أثروا على التَّتار، فتحولوا في سنين معدودة إلى قوة إسلاميَّة تنشر

الإسلام والهدى، بعدما كانت مصدر رعب وخراب!

واقع الأمة الإسلامية يومذاك يختلف عن واقعها اليوم، فإن المراقب لأحوالها يجدها أمة مهزومة من الداخل، فقناعتها بأن الإسلام يجب أن يمثِّلها في الخارج والداخل ضعيفة، ولذٰلك تراها تلهث وراء المبادىء البراقة، فتارة الوطنية، وكرة القومية، وأخرى الشيوعية، والاشتراكية، والديمقراطية، ولكن الله أبى إلا أن يذل جميع هٰذه الرايات، لعل الأمة الإسلامية تعود إلى ربها، وتعتز بدينها، وتعض على سنة نبيها بالنواجذ، فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.



الفصل الرابع
سلطان العلماء وإماتة البدع

إن للبدعة أثراً سيئاً على المجتمع الإسلامي، حذَّر منه وبيَّنه رسول الله ﷺ.

ولكن غفل قوم عن هٰذا التحذير، واخترعوا لأنفسهم عبادات، أو كيفيات في عبادات، أو التزامات خاصة، وعبدوا بها، وعلَّموها لأتباعهم؛ أنها الدين القيم، وجهلوا أن القرب من الله إنما يكون بالتزام شرعه وأحكامه، وأن وسائل التقرب محصورة كذٰلك في ذٰلك، فوقعوا بذٰلك في الفتنة.

ولقد كان سلطان العلماء آية من آيات الله؛ في العلم، والاستقامة، والعزة بالله، والزهد في الدنيا، والارتفاع عن مداهنة الملوك، ومسايرة أهواء العامة الذين لبستهم فتنة البدع التي هرم فيها الكبير، وتربَّى فيها الصغير، واتَّخذها العامة سنة، إذا ترك منها شيء؛ قيل: تُركت السنة.

وقد أدرك سلطان العلماء خطورة البدع؛ كما أدرك خطورة فساد الملوك، فكان ـ رحمه الله ـ سيفاً ذا حدين: حد سلَّه على ترف الملوك

ولهوهم ولعبهم ومنكرهم، وآخر على بدع العوام بجرأة لا نظير لها، ولو كان وراء ذلك السجن أو الموت، فيمضي الله كلمته في الملك والمملوك، الغني والصعلوك، والأمير والأجير؛ لأنها كلمة الحق، ينطق بها رجل الحق، القائم بالحق، الذي لا يساير أهواء الخلق، ولا يؤثر رضاهم على رضى مولاه الحق.

ولقد ترجم ذلك قولاً وعملاً، فكان يقول:

طوبى لمن تولَّى شيئاً من أمور المسلمين، فأعان على إماتة البدع، وإحياء السنن.

وأبطل بدعاً كثيرة، منها:

ـ صلاة الرغائب المبتدعة.

ـ صلاة ليلة النصف من شعبان.

ـ دق المنبر بالسيف.

وكان ـ رحمه الله ـ يقوم بإبطال البدع، وإنكار المنكر بنفسه، فقد اتفق أن الوزير عثمان ابن شيخ الشيوخ أستاذ دار الملك بنى بنياناً على سطح مسجد بمصر، وعمل فيه طبلخانة(١٣)، فلما بلغ ذلك سلطان العلماء ساءه هذا الأمر، وغضب لله؛ لأن في هذا إهانة لبيوت الله التي يُذكر فيها اسم الله؛ كما أن فيها إيذاء للمسلمين.

فذهب سلطان العلماء بنفسه وجماعته، وهدم البناء.

---

(١٣) أي: دار غناء ولهو.

ولما علم الوزير؛ غضب لذلك، فقام الشيخ بالإشهاد عليه، وأسقط عدالته، وحكم بفسقه، وعزل نفسه عن القضاء.

وكان لهٰذا الموقف صداه في العالم الإسلامي، حيث إن الخليفة العباسي ردَّ رسالة السلطان نجم الدين أيوب؛ لأن وزيره عثمان ابن شيخ الشيوخ هو الذي أملاها على رسول السلطان، وقد تقدم ذٰلك.

هذه المواقف عزَّزت مكانة العز في قلوب الناس، فهابته الملوك؛ لأنه رجل آثر آخرته على دنياه، وقدم رضى الله على رضى الناس جميعاً، فأرضى الله الناس عنه.

إن هٰذه المواقف التي بين يديك تبين لك أن سلطان العلماء يرى أن الإسلام دين مترابط، ولا يمكن أن تنفصم عراه؛ إلا على سبيل المغضوب عليهم، الذين يؤمنون ببعض الكتاب، ويكفرون ببعض، وهٰذا التصور ليس عليه أمرنا، فهو ردٌّ.

ونحن أمام دين متكامل، فروعه تتبع أصوله، فالقلب إذا استقام على أمر؛ انقادت الجوارح.

ولقد نبَّه سلطان العلماء على خطورة البدع، الزاعمة أن في الإسلام قشر ولباب، فقال في «الفتاوى» (ص ٧١ ـ ٧٢):

لا يجوز التعبير عن الشريعة بأنها قشر، مع كثرة ما فيها من المنافع والخير، وكيف يكون الأمر بالطاعة والإيمان قشراً؟! وأن العلم الملقب بعلم الحقيقة جزء، ومن أجزاء علم الشريعة، ولا يُطْلِق مثل هٰذه الألقاب إلا غبي شقي قليل الأدب.

ولو قيل لأحدهم: إن كلام شيخك قشور؛ لأنكر ذٰلك غاية الإنكار، ويطلق لفظ القشور على الشريعة! وليست الشريعة إلا كتاب الله وسنة رسوله، فيعزَّر هٰذا الجاهل تعزيراً يليق بمثل هٰذا الذنب.

وكلام سلطان العلماء حافز يدفعني لإيضاح أصل يجب على الدعاة الإسلاميين فهمه وهضمه، وإلا كان عملهم استنبات بذور في الهواء، فهل تؤتي أكلها؟!

إن الدعوة إلى الله سلسلة مترابطة حلقاتها، والأحداث الجسام التي حاقت بالأمة الإسلامية لا تجعلنا نفرِّق بين شعائر الله، ولا تدعونا إلى تفضيل بعضها على بعض؛ استخفافاً، فتقول كما يهرف الكثيرون:

هٰذه أمور سطحية، أو فرعية، أو خلافية، أو هامشية، يجب أن نتركها، ونركز جهودنا على الخطب العظيم، والخطر الجسيم، الذي فرَّق صفنا، وشتَّت شملنا!

إن نظرية اللباب والقشور التي يدندن حولها كثير من العاملين للإسلام بدعة جاهلية، يقصد منها:

١ ـ التفريق بين الأحكام.

٢ ـ بلبلة أفكار المسلمين وإدخالهم في دوامة الاهتمامات التي لا أصل لها في دين الله، بل تمتد جذورها إلى اليهود والنصارى، فلا هم أدركوا الأهم، وضاع منهم المهم، فصار أمرهم إلى تفرق وتشتت وضياع.

ولذٰلك، فإن ترك التحقيق العلمي بدعوى أن هٰذه الأمور خلافية،

وإهمـال إنكـار المنكر بدعوى أن هٰذه الأمور فرعية، فاسد من أصوله، والعميقُ العميقُ من جذوره؛ للآتي:

١ ـ لأن الخلاف امتد حتى شمل الأصول العقائدية، ولقد امتدَّ إلى معنى كلمة التوحيد، فالسواد الأعظم يقولون: معناها: لا موجود إلا الله. وكثير من الـدعاة يقولون: معناها: لا خالق ولا رازق ولا حاكم إلا الله. والمعنى الحق: لا معبود بحق إلا الله.

وكثير من المشـايخ يجيزون الاستغـاثـة بغير الله، والـطلب من الأموات، وكل ذٰلك ينافي شهادة التوحيد.

٢ ـ كل تقسيم لا يشهد له الكتاب والسنة وأصول الشرع بالاعتبار باطل يجب إلغاؤه.

وهٰذا التقسيم أصل من أصول الضلال، فإن القائلين به فرَّقوا بين ما سمَّوْه لباباً وما نعتوه قشوراً، وسلبوا القشور حكم الله المعين فيها، بل تركوها مرتعاً للأهواء، إذ كل له وجهة مُوَلِّيها، وهو مصيب فيها.

وهٰذا باطل من وجوه عديدة:

أ ـ أنه خلاف نصوص القرآن والسنة، وخلاف إجماع الصحابة وأئمة الإسلام.

ب ـ أنه يجعل حكم الله تابعاً لآراء الرجال، وظنونها.

ت ـ أنه يجتمع الضدان في الشيء الواحد، فيكون حسناً قبيحاً لله، مسخوطاً له محبوباً له مبغوضاً.

ث ـ أنه ينفي حقيقة حكم الله في نفس الأمر.

جـ ـ أنه يجعل الحقائق تبعاً للاعتقادات، فمن اعتقد بطلانه؛ كان باطلاً، ومن اعتقد صحَّته؛ كان صحيحاً، ومن اعتقد حلَّه؛ كان حلالاً، ومن اعتقد تحريمه؛ كان حراماً.

وهٰذا التصور أوله سفسطة، وآخره زندقة؛ لأنه يتضمن بطلان حكم الله ـ تعالى ـ قبل وجود المجتهدين، وأن الله لم يشرِّع لرسوله ﷺ سنن الهدى التي بيَّنت أمره ونهيه.

حـ ـ أنه يرفع ثبوت الأجرين للمجتهد المجدِّ المصيب، والأجر الواحد للمخطىء، فإنه لا خطأ عندهم، بل كل مجتهد مصيبٌ لحكم الله في نفس الأمر.

٣ ـ هٰذا التقسيم ليس له حد فاصل تُعرف به القشور من اللباب، ونحن نطالبهم بفرق واضح صحيح، ولا يجدون إلى الفرق سبيلاً؛ إلا بدعاوى باطلة.

فإن قالوا: اللباب ما فيه دليل قطعي، والقشر خلافه.

قلت: هٰذا يلزم منه الدور، فإنه إذا قيل: لا يثبت اللباب إلا بالدليل القطعي، ثم قيل: اللباب ما فيه دليل قطعي؛ كان ذٰلك دوراً، والدور باطل، وما بُني على الباطل؛ فهو باطل.

ناهيك أن كثيراً من الأمور الفرعية التي يعدونها قشوراً، عليها أدلة قطعية؛ كمسائل الطهارة، والصلاة، والصيام، والحج، والزكاة...

وهٰكذا أكثر الشريعة؛ أدلتها قطعية.

وهٰذا على نقيض حالهم الحالك، إذ إن أكثر الأصول التي يعدونها لباباً أدلتها ظنية؛ لأنها مبنية على القول بالمفهوم والقياس، وتقدمهما على العموم، والأمر بعد الحظر، وقول الصحابي، والاحتجاج بالمراسيل، وشرع ما قبلنا، وأضعاف ذٰلك.

فإن قالوا: اللباب ما لا يجوز التعبد فيه إلا بأمر واحد معين، والقشر بخلافه.

قلت: هٰذا أفسد من الأول، فإن الفروع التي يعدونها قشوراً لا يجوز التعبُّد فيها إلا بالمشروع على لسان رسول الله ﷺ.

فإن قالوا: اللباب ما يجوز أن يُعلم من غير تقديم ورود الشرع، والفرع بخلافه.

قلت: هٰذا الفرق في غاية الفساد، فإن أكثر المسائل التي يسمونها لباباً لم تُعلم إلا بعد ورود الشرع؛ كاقتضاء الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، بل أكثر مسائل التوحيد لم تُعلم إلا بالسمع والنقل الصحيح، فجواز رؤية الرب ـ تبارك وتعالى ـ يوم القيامة، وأكثر مسائل المعاد، ومسائل القبر، وعذابه، ونعيمه، وغير ذٰلك مما لا يعلم قبل ورود الشرع.

فإن قيل: اللباب ما يحرُم الخلاف فيه، والقشر ما لا يحرُم الخلاف فيه.

قلت: وهٰذا فرق باطل؛ لأن الخلاف شرٌّ كله، واستصغار بذرة

الخلاف لا يقره العقلاء؛ لأنها إن تركت؛ نمت، واستفحلت، فكانت شراً مستطيراً.

٤ ـ أن هٰذا التفريق الموهوم، والتقسيم المزعوم، يخالف ضرورات العقل، فلولا القشر؛ لفسد اللباب، وهٰذا مشاهد في خلق الله جميعاً، إذ جعل ربك القشر حماية للباب من الأمور الضارة، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ في «مجموع الفتاوى» (٢٣ / ٣٤٦):

فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول، وبين نوع آخر وتسميته مسائل الفروع؛ فهٰذا الفرق ليس له أصل؛ لا عن الصحابة، ولا عن التابعين لهم بإحسان، ولا أئمة الإسلام، وإنما هو مأخوذ عن المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع، وعنهم تلقَّاه من ذكره الفقهاء في كتبهم.

وهو تفريق متناقض، فإنه يُقال لمن فرق بين النوعين: ما حد مسائل الأصول التي يكفُر المخطىء فيها؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع؟

فإن قال: مسائل الأصول هي مسائل الاعتقاد، ومسائل الفروع هي مسائل العمل.

قيل له: فتنازُعُ الناس في محمد ﷺ؛ هل رأى ربه أم لا، وفي عثمان؛ أفضل من علي أم علي أفضل، وفي كثير من معاني القرآن، وتصحيح بعض الأحاديث: هي من المسائل الاعتقادية العلمية، ولا كفر

فيها بالاتفاق. ووجوب الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وتحريم الفواحش، والخمر: هي مسائل علمية، والمنكر لها يكفر بالاتفاق... انتهى.

٥ ـ وإذا كان صريح العقل حكم ببطلان هٰذا التقسيم؛ فإن صحيح النقل كذٰلك، ومن استقرأ أحوال الشريعة؛ وجد صدق ما قلنا، ودونك التفصيل الذي يروي الغليل، ويكبت الشانىء العليل.

أ ـ قال مولانا الحق:

﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا ادْخُلوا في السِّلْمِ كافَّةً ولا تَتَّبِعوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إنَّهُ لكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في «تفسير القرآن العظيم» **(١ / ٢٥٥)** موضحاً معنى هٰذه الآية:

يقول الله ـ تعالى ـ آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام، وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره؛ ما استطاعوا من ذٰلك.

قلت: لأن الخطاب موجَّه لهم للدخول في السلم، وهو الإسلام؛ كما قرره شيخ المفسرين ابن جرير ـ رحمه الله ـ فقال في «جامع البيان في تفسير القرآن» **(٢ / ١٨٨)**:

وأولى التأويلات بقوله: **﴿ادْخُلوا في السِّلْمِ﴾**؛ قولُ مَن قال: معناه: ادخلوا في الإسلام كافة.

وهو ما ذهب إليه جلَّة أئمة التفسير؛ كالقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٣ / ٢٢ ـ ٢٣)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١ / ٢٢٤ ـ ٢٢٥)، والبغوي في «معالم التنزيل» (١ / ١٨٣).

ب ـ قال تعالى:

﴿ولٰكِنْ كُونوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تَعَلِّمونَ الكِتابَ وبِما كُنْتُمْ تَدْرُسونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

والرباني هو العالم الفقيه البصير بسياسة الناس، فيربيهم بصغار العلم قبل كباره.

هٰذا ما ذكره البخاري في «صحيحه» (١ / ١٦٠ ـ فتح)، والبغوي في «معالم التنزيل» (٣٢٠ ـ ٣٢١)، والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٤ / ١٢٢).

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (١ / ١٦٢):

والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره: ما دق منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده.

قلت: وبهٰذا يتبيَّن أن تقسيم الشريعة إلى قشر ولباب باطل من حيث القول والعمل؛ لأن النفس البشرية؛ إن لم توطَّن على فعل الأمور الميسرة، ثم يُتَدَرَّج بها إلى القمم السامقة؛ فلن تفلح إذاً أبداً.

وهٰذا أصل في تربية النفوس، وسياسة الناس، يجب أن يدركه

العالمون العاملون، فيحملون الناس بالتدريج من السهل إلى الصعب.

وعليه قام الإسـلام من يوم نزوله على قلب محمد حتى أكمل الله الدين، وأتمَّ النعمة، فإن الله لم ينزل كتابه جملة واحدة، ولا أمر بأوامره دفعة واحدة، ولا نهى عن المعاصي مرة واحدة، وأوضح مثال تحريم الخمر.

٣ ـ عن زيد بن خالد الجهني عن أبي طلحة الأنصاري قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تماثيل».

قال: فأتيت عائشة، فقلتُ: إن هٰذا يخبرني أن النبي ﷺ قال:

«لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا تماثيل».

فهل سمعتِ رسول الله ﷺ ذكر ذٰلك؟

فقالت: لا، ولكن سأحدثكم ما رأيته فعل، **رأيته خرج في غزاته**، فأخـذت نمـطاً، فستـرتُـه على البـاب، فلما قدم، فرأى النمط؛ عرفتُ الكراهية في وجهه، فجذبتُه حتى هتكتُه، أو قطعتُه، وقال:

«إن الله لم يأمُرْنا أن نكسو الحجارة والطين».

قالت: فقطعنا منه وسادتين، وحشوتهما ليفاً، فلم يَعِبْ ذٰلك عليّ[١٤].

(١٤) أخرجه مسلم (١٤ / ٨٦ ـ نووي).

فهٰذا رسول الله ﷺ لم يَحُلْ جهاده في سبيل الله بينه وبين النظرة الشمولية لأحكام الدين وعرى الإسلام، فترى زوجه المؤمنة الكراهة في وجهه؛ لأنها سترت الباب بنمط فيه تماثيل.

مما يدل دلالة واضحة أن رسول الله ﷺ لم يفرق في لحظة ما بين أحكام الدين، إذ كلها متساوية الأقدام؛ لأنها من لدن رب العالمين.

٤ ـ اعلم أخا الإيمان أن في اتِّباع طريقة رسول الله ﷺ، ونهج سنته الصحيحة، إبراز لمعالم الدين، واعتزاز بما نحن عليه من هُدى، نرجو أن يجتمع عليه الثقلان.

وحسبك أن تعلم في هٰذا الباب أن كثيراً من الأمور التي يعدُّونها فرعية، تُعَدُّ من أركان العزة والبقاء لهٰذا الدين العظيم، من ذٰلك مسألة تعجيل الفطر، فقد بنى الشارع الحكيم عليها أصولاً عظيمة:

أ ـ تعجيل الفطر يجلب الخير:

عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»(١٥).

ب ـ تعجيل الفطر سنة رسول الله ﷺ:

فإذا عجلت الأمة الإسلامية الفطر؛ فقد أبقت على سنة رسول الله ﷺ، ومنهاج السلف الصالح، ولن يضلوا ـ بإذن الله ـ ما داموا عاضِّين عليها بالنواجذ، رافضين كل ما يغير قواعدها.

(١٥) أخرجه البخاري (٤ / ١٧٣ ـ فتح)، ومسلم (١٠٩٣).

عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تزال أمَّتي على سنَّتي ما لم تنتظر بفطرها النجوم»[١٦]

ت ـ تعجيل الفطر مخالفة للضالين والمغضوب عليهم:

إذا كان الناس بخير؛ لأنهم سلكوا منهاج النبوة، وحافظوا على سنن الهدى؛ فإن الإسلام يبقى ظاهراً قاهراً، لا يضره مَن خالفه، وحينئذ تكون الأمـة الإسلامية نبراساً يُستضاء به في لُجَّة الظلماء، وقدوة حسنة يُتَأَسى بها؛ لأنها لن تكون ذيلاً لأمم الشرق والغرب، وظلًّا لكل ناعق، تميل مع الريح حيث مالت.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال:

«لا يزال الدين ظاهراً ما عجَّل الناس الفطر؛ لأن اليهود والنصارى يؤخرون»[١٧].

فانظر ـ رحمك الله ـ؛ تر أن تعجيل الفطر أُنيط به أمور عظيمة، وفي هٰذه الإشارة فوائد جمة، ولطائف مهمة؛ منها:

أن بقاء الدين ظاهراً خفاقة رايتُه مرهون بمخالفة الذين من قبلنا من الـذين أوتـوا الكتـاب، وذٰلـك إعـلام للأمـة الإسلامية أنها تحوز الخير بحذافيره إذا بقيت أمة واحدة، متميزة، ربانية، لا شرقية ولا غربية، فإذا كانت كذٰلك؛ بقيت كالشامة بين الأمم، ترنوا إليها الأبصار، وتهوي إليها

---

(١٦) أخرجه ابن حبان (٨٩١) بسند صحيح.

(١٧) أخرجه أبو داود (٢ / ٣٠٥)، وابن حبان (٢٢٤) بإسناد حسن.

الأفئدة، ويتَّخـذها الناس إماماً[١٨]، ولن تكون كذٰلك إلا بأخذ الإسلام جملة واحدة؛ كتاباً وسنة، عقيدة ومنهاجاً.

وهٰـذا التفصيل الـذي بين يديك ـ أخي في الله، لا ينفي ترتيب الأمور، ومعرفة نقطة البداية التي ينبغي على كل داع إلى الله أن يمر بها، وكيف لا يكون ذٰلك ورسول الله ﷺ حدَّها عندما أرسل معاذاً داعياً إلى الله، فقال له:

«إنـك تقـدُمُ على قوم من أهل الكتاب، **فأول** ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله ـ تعالى، فإذا عرفوا ذٰلك؛ فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا؛ فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أمـوالهم، تؤخـذ من غنيهم، فتردُّ على فقيرهم، فإذا أقروا بذٰلك؛ فخذ منهم، وتوَقَّ كرائِم أموال الناس»[١٩]؟!

وهٰكذا؛ حدد رسول الله ﷺ نقطة البداية، وخطوة الانطلاق للدعاة، حتى يقاتل آخرهم الدجال: العقيدة أولاً، ورأس الأمر التوحيد؛ لأن معظم الشرور والنكبات التي أصابت الأمة الإسلامية، وأشد البلايا التي حلَّت بهـا؛ كانت بسبب انتكاسة العقيدة في النفوس، وبسبب فساد المفاهيم للمبادىء والأمور الأساسية، وبسبب النزاع الذي وقع في الإيمان.

ثم يقوم أناس يدعون الإصلاح، ويزعمون التوفيق، فيقولون:

---

(١٨) وقـد أنشأت مصنفا في هٰذا الباب، وهو الموسوم بـ: «الأمة الإسلامية بين التميُّز والتحيُّز»، يسر الله نشره بمنه وكرمه.

(١٩) أخرجه البخاري (١٣ / ٣٤٧ ـ فتح)، ومسلم (١ / ١٩٦ ـ ٢٠٠ ـ نووي).

نحن أحوج ما نكون في هٰذا العصر إلى تقوية روابط الأخوة، حتى نستطيع مواجهة التحديات المعاصرة الخطيرة التي حاقت بأمتنا.

نعم... نحن بحاجة إلى ذٰلك.

لكن، هل يمكن أن يقوم صرح الأخوة إلا بعد تصحيح العقيدة، ورسوخ الإيمان؟

إن جميع أنواع الروابط وأشكال الأخوة التي لم تتخذ تصحيح العقيدة أولاً انهارت أمام أول رجفة فكرية وغير فكرية.

ودونك ـ أخي في الله ـ شهادة من عصرنا الحاضر، نطق بها مَن عايشها، واكتوى بنارها.

قال الأستاذ محمد قطب في «واقعنا المعاصر» (ص ٤٠٥ ـ ٤٠٩):

وأخذت الدعوة مداها في حياة الإمام الشهيد، وانضمَّ إليها مئات الألوف من الناس[٢٠].

كانوا نماذج شتى، واتجاهات متعددة...

كان فيهم فريق من الصوفيين الذين ظنوا أن جماعة الإخوان المسلمين جماعة صوفية جديدة متنوِّرة، تسير على ذات القاعدة الصوفية التي يعرفونها، ولكنها خالية من البدع التي يقع فيها المحترفون من

---

(٢٠) كتب الأستاذ محمد قطب في حاشية (ص ٤٠٥) قائلاً:

تقدر بعض الجهات عدد الذين انضموا للدعوة قبل مقتل الإمام الشهيد بنصف مليون، وليس هناك إحصاء دقيق بطبيعة الحال.

الصوفية، فرأوا أن اتِّباعها لا يخرِج بهم عن طريقهم الذي ألفوه، وفي الوقت ذاته لا يوقعهم فيما يُعاب على الصوفية من انحرافات.

وكان فيهم كثير من **الشباب النظيف المتطهِّر**، الذي لم تلوثه موجة الفساد الكاسحة التي تفسد المجتمع، وتلوِّثه بالدنس، والذي اتخذ موقفاً محدداً من الحضارة الغربية: أن ينتفع بالنافع منها، الذي لا يتعارض مع عقيدته وأخلاقه، ولكنه يرفض مادية هٰذه الحضارة، وتبذُّلها الأخلاقي، وتحلُّلها الجنسي، واستحلالها لكل ما حرَّم الله...

ولقد كان مثل هٰؤلاء الشباب موجودين في المجتمع... لم تكن قد أكلتهم الدوامة، ولا غلبتهم على نظافتهم وتطهرهم... ولكنهم كانوا ضائعين... كانوا أفراداً متناثرين، لا يربط بينهم رابط، ولا تجمع بينهم وحدة... وكانوا قمينين أن يعيشوا في عزلتهم الضائعة، تفنى فيها أعمارهم، ولا يلتفت إليهم أحد، إلا بالسخرية إن التفت! ولا يحدثون تياراً في المجتمع؛ لأنهم قطرات متناثرة مُزَاحَةٌ من طريق السيل المتدفق، فحسبها أن تقف في موقعها الذي أُزيحت إليه، حتى تفنى وتضيع... ومن ثم لم يكن لهم ـ رغم وجودهم ـ وجود محسوس!

فالآن وجدوا أنفسهم!

لم يعودوا قطرات متناثرة مزاحة من الطريق... إنما صاروا ـ في حس أنفسهم على الأقل ـ وجوداً محسوساً، وجوداً مستقلاً متميزاً عن الدوامة الكاسحة، مغايراً لها في الاتجاه، تضغطه الموجة الكاسحة، نعم، ولكنها لا تفقده وجوده، ولا تفقده تميزه، ولا تفقده ترابطه... بل تزيده!

ثم إنه ينمو. . . نمواً سريعاً. . . فتحس الموجة الكاسحة ضغطه، وإن كانت لا تقف له، ولا تأبه له، ولا تكف عن الجريان من أجله، ولكنها تحس بالضيق من وجوده!

وكانت هناك **جماهير جاءت لتشبع وجدانها الديني**، وهي لا تعرف من الإسلام إلا ذاك الوجدان! وكانت تجد في خطب الإمام الشهيد ودروسه من فيض الروحانية ـ وقد وهب الله له روحانية فياضة مشعة عميقة التأثير ـ ما يُشبِع في نفسها وجدانَها الديني، فيشدها إلى الجماعة، فتمارس بعض نشاطاتها، ولكن مطلبها الأول هو إشباع ذٰلك الوجدان!

وكان فيهم كذٰلك مستنفعون! **من رجال الأحزاب السياسية القائمة يومئذ!** ظنوا أن هٰذا حزب سياسي جديد، ينمو بسرعة متزايدة. . . أو قطار جديد، ينهب الأرض نهباً، وتتزايد جماهيره. . . فحدثتهم أنفسهم أن لعله يكون ـ بكثرة الجماهير وترابطهم ـ أقرب من غيره في الوصول إلى الحكم. . . فلا تفتهم إذن الفرصة، ولا يفتهم القطار!

وحين جاءت الضربة عام **١٩٤٨ ـ ١٩٤٩**؛ فرت كثير من تلك الجموع إلى غير رجعة!

فرَّ المتصوفون. . . فقد عرفوا ـ يقيناً ـ أن هٰذه الجماعة لم تكن جماعة صوفية جديدة متنورة، إنما كانت حركة جهادية، يتعرض أصحابها لما يتعرض له المجاهدون في التاريخ كله؛ من القتل، والتعذيب، والتشريد، والمطاردة. . . وما لهٰذا كانوا قد جاؤوا، ولا عندهم احتمال له، ولا اصطبار عليه. . . فالنجاة النجاة من مخاطر الطريق!

وفرَّ المستنفعون. . . فقد عرفوا ـ يقيناً ـ أن هٰذا القطار هو أبعد شيء عن الوصول إلى كراسي الحكم. . . وهم لهٰذا جاؤوا، لا يعرفون غيره، ولا يستهدفون سواه. . . فالفرار الفرار قبل أن يدمغوا دمغة لا يستطيعون التخلص من عقابيلها فيما بعد!

وفرت الجماهير، فما عاد هناك ما يشبع وجدانهم الديني، وهم لا يملكون غيره، ولا يعرفون من الإسلام غيره، إنما هناك سجن، وتعذيب، وتشريد، وتقتيل. . . وما لهٰذا كانوا قد جاؤوا، ولا عندهم احتمال له، ولا اصطبار عليه. . . فالهرب الهرب قبل أن تعثر عليهم السلطات، وتتهمهم بأنهم كانوا هناك!

وبقي الشباب النظيف المتطهر. . . ومع ذٰلك لم يبق كله. . . فما كان كله يعرف من قبل عقابيل الطريق. . . وما كان كله يقدر أن ميناله في الطريق شيء من العذاب والتضحيات! إنما كان يظنُّ أنها سياحة طيبة في الجو النقي، بعيداً عن قذارات المجتمع الدنس الذي يعيش فيه، فيها متاعبها الذاتية فحسب، متاعب المحافظة على الدين في وسط الفساد الكاسح، تلك التي قال عنها رسول الله ﷺ:

«يأتي زمان يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر»[٢١].

أما التعرض للسجون والمعتقلات، والتشريد والتعذيب؛ فلم يكن في حساب كثير منهم، على الرغم من أن الإمام الشهيد قال لهم ذٰلك في

(٢١) قلت: وهو صحيح بشواهده؛ كما بينته في جزء مفرد، وهو الموسوم بـ: «القابضون على الجمر».

وضوح لا لبس له، حين قال لهم في رسالة «بين الأمس واليوم»:

«أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها؛ ستلقى منهم خصومة شديدة، وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقَّات، وسيعترضكم كثير من العقبات، وفي هٰذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات، أما الآن؛ فلا زلتم مجهولين، ولا زلتم تمهِّدون للدعوة، وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد...

سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة في طريقكم.

وستجدون من أهل التديُّن ومن العلماء الرسميين مَن يستغرب فهمكم للإسلام، وينكر عليكم جهادكم في سبيله.

وسيحقد عليكم الرؤساء، والزعماء، وذوو الجاه والسلطان، وستقف في وجوهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كل حكومة أن تحدَّ من نشاطكم، وأن تضع العراقيل في طريقكم.

وسيتذرع الغاصبون بكل طريق لمناهضتكم، وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون بالحكومات الضعيفة، والأخلاق الضعيفة، والأيدي الممتدة إليهم بالسؤال، وإليكم بالإساءة والعدوان، وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات، وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة، وأن يظهروها للناس في أبشع صورة؛ معتمدين على قوتهم وسلطانهم، معتدين بأموالهم ونفوذهم.

﴿يُرِيدونَ أَنْ يُطْفِئوا نورَ اللهِ بأفْواهِهِمْ، ويَأْبى اللهُ إلا أنْ يُتِمَّ نورَهُ ولوْ كَرِهَ الكافِرونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وستدخلون بذلك ولا شك دور التجربة والامتحان، فتسجنون، وتعتقلون، وتنقلون، وتشرَّدون، وتصادر مصالحكم، وتعطَّل أعمالكم، وتفتَّش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان:

﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقولوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

ولكنَّ الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين، ومثوبة العاملين المحسنين:

﴿يا أيُّها الذينَ آمَنوا هَلْ أدُلُّكُم على تِجارةٍ تُنْجِيكُم مِن عذابٍ أليمٍ﴾. . . . ﴿فأَيَّدْنا الذينَ آمَنوا على عَدُوِّهِمْ فأَصْبَحوا ظاهِرينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٤]، فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله؟»[٢٢].

إنما الذين بقوا داخل الجماعة بعد الضربة القاصمة كانوا هم الذين تربَّوْا بالفعل على يد الإمام الشهيد، والذين كان - في تقسيمه - يسميهم الإخوان العاملين، وإن كان كثير من هؤلاء قد ظهرت عليهم فيما بعد آثار التعجُّل في التكوين والحركة، التي سنتكلم عنها فيما بعد. . .

فرت كثير من الجموع التي كانت تتحلق حول الإمام الشهيد في

---

(٢٢) «مجموعة رسائل حسن البنا»، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت، ط٣، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣م، ص١٠٨ - ١٠٩.

درسه الأسبوعي، فتملأ المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين، وتملأ الشـوارع المتفرعة حوله، حين رأوا أن الأمر ليس عرضاً قريباً، ولا سفراً قاصـداً، إنمـا هو جهاد وعذاب؛ كما فرَّت الجموع التي كانت تستقبل الإمام الشهيد كلما تنقل في مدن القطر أو في أريافه، في رحلاته الدائمة التي لم يكن يفتر عنها. أ. هـ.

ونردفها بشهادة من موقع آخر، نطق بها منظرهم؛ قال الشيخ سعيد حوى في «هٰذه تجربتي وهٰذه شهادتي»[٢٣] (ص ٣٤):

وكانت الجماعة خارجة من انقسام خطير، وانشقاق كبير، ولا غرابة، فإن أصوات النقد كانت تلقى آذاناً صاغية؛ لكثرة الثغر، والمناخ المساعد، والأجـواء الخـارجية الضـاغـطة، **والتـركيب التنـظيمي للجمـاعة هش، والمنتسبون للجماعة أخلاط، والجماعة ليست قادرة على صهرهم**. أ. هـ.

قلت: مهما تعدَّدت المسوغات التي يعزو إليها المحلِّلون من داخل الجماعة، ومهما تنوعت الأسباب التي يتَّخذها أفراد الجماعة لتعليل هٰذه الظاهرة الخطيرة في صفوفهم، والتي كررت في أزمنة وأماكن عديدة؛ فإن السبب في ذٰلك أن مؤسس الجماعة الشيخ حسن البنا أقام صرحها على حسـاب تصحيح العقيدة، حيث قال في «رسـالـة العقائد» (ص ٤١٨ - مجموعة رسائله):

---

(٢٣) وهي تجربة فاشلة، وشهادة زور؛ كما بينتها في رد مفصَّل وسمته بـ: «ستكتب شهادتهم ويسألون»، وعسى أن يرى النور قريباً إن شاء الله.

وخلاصة هٰذا البحث أن السلف والخلف قد اتّفقا على أن المراد غير الظاهر المتعارف بين الخلق، وهو تأويل في الجملة، واتَّفقا كذٰلك على أن كل تأويل يصطدم بالأصول الشرعية غير جائز، فانحصر الخلاف في تأويل الألفاظ بما يجوز في الشرع، **وهو هين كما ترى**، وأمر لجأ إليه بعض السلف أنفسهم، **وأهم ما يجب أن تتوجَّه إليه همم المسلمين الآن توحيد الصفوف، وجمع الكلمة، ما استطعنا إلى ذٰلك سبيلاً**، والله حسبنا، ونعم الوكيل. أ. هـ.

وهنا لا بد من التذكير مرة أخرى بما ذكرته في كتابي: «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة» (ص ١٣١ ـ ١٣٢)، لعل الله ينفع به أقواماً آخرين:

واعلم ـ علمك الله ـ أن التجمع على مجرد مبادىء عامة، وأفكار غامضة، ليس هو الطريق الفضلى، بل من الواجب أن يسبق التجمع الصحيح اتفاق على أفكار واضحة، وفهم كامل شامل للإسلام الذي نعمل على عودته إلى مراكز السيادة والقيادة والتوجيه.

إنه لا يجدي أبداً أن تجمع أشتاتاً من الناس، ذوي اتجاهات مختلفة، وآراء متضاربة، وأفكار متناقضة، في بنيان واحد؛ لأنه سرعان ما يدب الخلاف بينهم، ويحتدم النزاع، ويشتد الصراع، فتأتي الفرقةُ بنيانهم من القواعد، فيخرُّ عليهم السقف من فوقهم، وذٰلك مما عملت على تأخيره وتأجيله.

إنه لا يفيد التجمع الصحيح في شيء أن تسعى لترضية هٰذا الاتجاه

وذاك، وأن تجامل هٰذا الشيخ وذاك، لا بد من البحث عن الاتجاه السليم، والصراط المستقيم، والفهم الصائب، والرأي الثاقب؛ لتبنِّيه، واعتناقه، ودعوة الناس إليه، وتجميعهم على أساسه.

إنه لمن المحال ـ إلا على حساب العقيدة ـ أن تجمع رجلاً يؤمن بالمنهج السلفي، وآخر صوفي يؤمن بالمكاشفات والإلهامات والخلوات، وثالث متعصب، ورابع يأخذ من الجميع ما راق له، فوافق هواه ومزاجه، مع خامس خرافي.

وقديماً قيل: إرضاء الناس غاية لا تدرك.

وقلنا: وإرضاء الله غاية لا تترك.

فَفَضِّل ما لا يترك على ما لا يدرك!

ليس المهم في التجمع الكثرة والكم، بل المهم هو الاتجاه الصحيح والكيف.

أليس من أوضح قواعد القتال رص الصف، ووحدة الكلمة، وإلا هُزِمَ الجمع وولى الدبر؟!

لذلك لا بد من جمع المسلمين على كلمة سواء، وعقيدة صافية واضحة، ومن ثم التصدي للجاهلية الخبيثة الماكرة، وإلا كانت المعركة خاسرة، والوجوه باسرة. أ. هـ.



الفصل الخامس
سلطان العلماء والفتوى

كان سلطان العلماء مفتي الشام، فقد اشتهر بالإفتاء، وكانت جموع العباد ترد عليه؛ لتستفتيه، من سائر البلاد.

ويدلك على ذٰلك تواليفه في الفتوى:

١ ـ «الفتاوى الموصلية».

٢ ـ «الفتاوى المصرية».

٣ ـ «الأجوبة القاطعة لحجج الخصوم للأسئلة الواقعة في كل العلوم».

وهٰذه ثروة عظيمة، تدل على سعة علمه، وبعد نظره، ودقة ملاحظته، وتبحره في الفقه وأصوله.

وقد شهد أكابر العلماء للعز بن عبدالسلام بالاجتهاد المطلق.

قال مؤرخ الإسلام الذهبي في «العبر في خبر من عبر» **(٣ / ٢٩٩)**:

وبلغ رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب، مع الزهد،

والورع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصلابة في الدين.

وقال السيوطي في «حسن المحاضرة» (١ / ٣١٥):

ثم كان في آخر عمره لا يتقيد بالمذهب، بل اتَّسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده.

وهٰذا ما قرره أكثر مترجميه، وهو لا يعارض أنه بدأ طلب العلم بتقليد المذهب الشافعي؛ لأن هٰذا السبيل الوحيد الممكن في زمنه؛ لغلبة التقليد، وشيوع المذهبية، إذ لم يكن بإمكان طالب العلم أن يدرس الفقه إلا على طريق مذهب معين، ولكنه عندما تعمَّق في العلم، وتوسَّع في الطلب؛ تميَّز بحريته الفكرية، فتحرر من ربقة التقليد، وترك التزام مذهب معين، وصار يدور مع الدليل والحق حيث دارا.

ولم يكتف سلطان العلماء بنبذ التقليد، والانطلاق في رحاب الاجتهاد المطلق، يقطف من ثماره الدانية، ويشيع الخير والسنة بين العباد، بل شن الغارة على المقلدين المتعصبين، وأنكر عليهم مخالفتهم النصوص الصريحة تعصُّباً للمذهب، فقال في كتابه القيم «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (٢ / ١٣٥ ـ ١٣٦):

ومن العجب العجيب أن الفقهاء المقلدين يقف أحدهم على ضعف مأخذ إمامه، بحيث لا يجد لضعفه مدفعاً، ومع هذا يقلده فيه، ويترك الكتاب والسنة والأقيسة الصحيحة لمذهبه، جموداً على تقليد إمامه، بل يتحلل لدفع ظواهر الكتاب والسنة، ويتأولهما بالتأويلات البعيدة الباطلة؛ نضالاً عن مقلده.

وقد رأيناهم يجتمعون في المجالس، فإذا ذُكر لأحدهم في خلاف ما وطن نفسه عليه؛ تعجَّب غاية العجب؛ من غير استرواح إلى دليل، بل لما ألفه من تقليد إمامه، حتى ظن أن الحق منحصر في مذهب إمامه أولى من تعجبه من مذهب غيره(٢٤).

فالبحث مع هٰؤلاء ضائع، مفض إلى التقاطع والتدابر من غير فائدة يجديها، وما رأيتُ أحداً رجع عن مذهب إمامه إذ ظهر له الحق في غيره، بل يصير عليه مع علمه بضعفه وبعده.

فالأولى ترك البحث مع هٰؤلاء الذين إذا عجز أحدهم عن تمشية مذهب إمامه؛ قال: لعل إمامي وقف على دليل لم أقف عليه، ولم أهتد إليه(٢٥).

---

(٢٤) وانظر: «هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة؟» للمعصومي ـ بتحقيقي، ففيها أجوبة قواطع على شبه المذهبية المتعصبة.

(٢٥) وهٰذا هو الحق، فإن عامة السلف على هٰذا يرون عدم مجالسة أهل البدع ومناظرتهم؛ لما في ذٰلك من الخطر العظيم.

قال اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١ / ١٩):

فما جنى على المسلمين جناية أعظم من مناظرة المبتدعة، ولم يكن لهم قهر ولا ذل أعظم مما تركهم السلف على تلك الجملة يموتون من الغيظ كمداً ودرداً، ولا يجدون إلى إظهار بدعتهم سبيلاً.

حتى جاء المغرورون، ففتحوا لهم إليها طريقاً، وصاروا لهم إلى هلاك الإسلام دليلاً، حتى كثرت بينهم المشاجرة، وظهرت دعوتهم بالمناظرة، وطرقت أسماع من لم يكن عرفها من الخاصة والعامة، حتى تقابلت الشُّبه في الحجج، وبلغوا من التدقيق في اللجج، فصاروا أقراناً وأخداناً، وعلى المداهنة خلاناً وإخواناً، بعد أن كانوا في دين الله أعداء

ولم يعلم المسكين أن هٰذا مقابَل بمثلِه، ويفضل لخصمه ما ذكره من الدليل الواضح والبرهان اللائح.

فسبحان الله، ما أكثر مَن أعمى التقليد بصره، حتى حمله على مثل ما ذُكِر.

وفقنا الله لاتباع الحق أينما كان، وعلى لسان مَن ظهر.

وأين هٰذا من مناظرة السلف، ومشاورتهم في الأحكام، ومسارعتهم إلى اتباع الحق إذا ظهر على لسان الخصم.

وقد نقل عن الشافعي ـ رحمه الله ـ أنه قال:

ما ناظرتُ أحداً؛ إلا قلت: اللهم أجْرِ الحق على قلبه ولسانه، فإن كان الحق معي؛ اتبعني، وإن كان الحق معه؛ اتبعته. أ. هـ.

أرأيت ـ أخا الإسلام ـ حملة سلطان العلماء المنصورة على المقلدين، وتضجره وشكواه من المتعصبين الذين جعلوا الأمة عزين؟!

= وأضداداً، وفي الهجرة في الله أعواناً يكفرونهم في وجوههم عياناً، ويلعنونهم جهاراً، وشتان ما بين المنزلتين، وهيهات ما بين المقامين.

نسأل الله أن يحفظنا من الفتنة في أدياننا، وأن يمسكنا بالإسلام والسنة، ويعصمنا بهما بفضله ورحمته. أ. هـ.

قلت: لقد رأيت صدق ما وصف في هٰذه الأيام العجاف، حيث تصدر الفتوى باسم السلف أفراخ من المتعالمين، فقعدوا مجالس المناظرة مع المبتدعة، فأطلت البدع برؤوسها، ورفع أصحابها عقيرتهم بعدما كانت العامة والخاصة لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً. نسأل الله السلامة.

وقد زدتُ المسألة بسطاً وتوضيحاً في رسالتي «من وصايا السلف»، الوصية الأخيرة.

وما أشبه اليوم بالبارحة!

أليست هٰذه دعوة الكتاب والسنة وسلف هٰذه الأمة، فإن الأمة لم تزل تسأل أهل العلم دون التزام، حتى ظهرت المذهبية المتعصبة، التي حشرت الناس في بوتقة التقليد، وتقليد أربعة فقط، ولا مزيد.

قال سلطان العلماء في «قواعد الأحكام» (٢ / ١٣٥):

كان الناس لم يزالوا من زمن الصحابة إلى أن ظهرت المذاهب يقلدون من اتفق من العلماء من غير نكير من أحد يُعتبر إنكاره، ولو كان ذٰلك باطلاً؛ لأنكروه.

ولم يكتف سلطان العلماء بالقول باتباع الدليل، ولو كان المخالف صحابي؛ قال رحمه الله في «الفتاوى» (ص ٤٠):

ولا يجب على المجتهدين تقليد الصحابة في مسائل الخلاف، بل لا يحل لهم ذٰلك مع ظهور أدلتهم على أدلة الصحابة؛ لأن الله أمر باتباع الأدلة التي نصبها على أحكامه، ولا يوجب تقليد العلماء[٢٦] إلا على العامة الذين لا يعرفون أدلة الأحكام الشرعية، والله أعلم.

أقول: لم يكتف بذٰلك، بل نقله إلى دائرة البحث والفتيا، فقد خالف المذهب الشافعي؛ لظهور الدليل في عدة مواطن:

١ ـ في القذف، حيث قال في «قواعد الأحكام» (٢ / ١٥٠):

---

(٢٦) وهٰذا هو الصواب، لكن دون التزام بأحدهم، بل من اتفق منهم ـ كما نعى عليه سلطان العلماء آنفاً ـ، فتدبر، ولا تكن من الغافلين!

إذا قال رجل لرجل: أنت أزنى الناس. أو قال: أنت أزنى من زيد. فظاهر هذا اللفظ أن زناه أكثر من زنا زيد، وأكثر من زنا سائر الناس.

وقال الشافعي: لا حد عليه حتى يقول: أنت أزنى زناة الناس، وفلان زان، وأنت أزنى منه.

وفي هذا بعد من جهة أن المجاز قد غلب على هذا اللفظ، فيقال: فلان أسجع الناس، وأسخى الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس، والناس كلهم يفهمون من هذا اللفظ أنه أشجع شجعان الناس، وأسخى أسخياء الناس، وأعلم علماء الناس، وأحسن حسان الناس.

والتعبير الذي وجب الحد لأجله حاصل بهٰذا اللفظ، فوق حصوله بقوله: أنت زان.

٢ ـ في الحلف، حيث قال في «قواعد الأحكام» (٢ / ١٠٥):

إن القرآن يُطلَق على الألفاظ المتداولة الدالة على الكلام القديم، ويطلق على الكلام القديم الذي هو مدلول الألفاظ، واستعماله في الألفاظ أظهر وأغلب من استعماله في مدلولها.

فإذا حلف بالقرآن؛ فقد حملَه أبو حنيفة على الألفاظ، فلم يحكم بانعقاد يمينه.

وحمله الشافعي ومالك على الكلام القديم.

وهو خلاف الظاهر من استعمال اللفظ، وأبعد من ذٰلك تحنيث الحالف بالمصحف، إذا خالف موجب يمينه.

وكذٰلك خالف المذاهب الأربعة إذا ظهر الدليل، ومن أمثلة ذٰلك ما قاله في كتابه القيم «قواعد الأحكام» (٢ / ٦):

وقال أهل الظاهر وبعض العلماء: من ترك الصلاة أو الصيام لا يلزمه القضاء؛ لأن القضاء ورد في الناسي والنائم، وهما معذوران، وليس المتعمد في معنى المعذور.

ولما قالوه وجه حسن، وذٰلك أن الصلاة ليست عقوبة من العقوبات، حتى يقال: إذا وجبت على المعذور؛ فوجوبها على غيره أولى؛ لأن الصلاة إكرام من الله للعبد، وقد سماه جليساً له، وأقرب ما يكون العبد من ربه إذا كان ساجداً.

ولا يستقيم مع هٰذا أن يقال: إذا أُكرم المعذور بالمجالسة والتقريب؛ كان العاصي الذي لا عذر له أولى بالإكرام والتقريب، وما هٰذا إلا بمثابة من يرتب الكرامة على أسباب الإهانة، فيقول: إذا كففت عن عقوبة الإعفاء؛ كان الكف عن حد الزناة وقطاع الطريق وشربة الخمر والجناة على النفوس والأطراف أولى.

وهٰذا قطع للمناسبة من الأسباب ومسبباتها.

فأنت تراه قد خالف في هٰذه المسألة المذاهب الأربعة جميعاً، وأخذ برأي الظاهرية.

وآيم الله، إن هٰذا إلا نفس رجل تبحر في الفقه، ورسخ كعبه في الفهم، وعلا قدمه في الاجتهاد المطلق.

وإذا كان العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ تحرر من قيود المذهبية التي تقتل الإبداع، وتميت التحرر الفقهي المضبوط بقواعد الشريعة؛ فإن نظرته للأمور امتازت بالواقعية إلى القضايا، ومن أمثلة ذٰلك:

١ ـ في ادعاء السوقة على الحاكم.

قال سلطان العلماء في «قواعد الأحكام» (٢ / ١٠٦):

لو ادَّعى السوقة على الخليفة، أو عظيم من الملوك؛ أنه استأجره لكنس داره، وسياسة دوابِّه، فإن الشافعي يقبله.

وهٰذا في غاية البعد، ومخالفة الظاهر، وخالفه بعض أصحابه في ذٰلك.

وخلافه متَّجه لظهور كذب المدَّعي، والقاعدة في الأخبار؛ من الدعاوى، والشهادات، والأقارير، وغيرها: أن ما كذَّبه العقل أو جوَّزه، وأحالته العادة؛ فهو مردود، وأما ما أبعدته العادة من غير إحالة؛ فله رتب في البعد والقرب، قد يختلف فيها، فما كان أبعد وقوعاً؛ فهو أولى بالرد، وما كان أقرب وقوعاً؛ فهو أولى بالقبول، وبينهما رتب متفاوتة.

ومن طالع كتب فتاويه؛ وجدها تمتاز بالعمق، والواقعية، والبعد عن التكلف.

وانظر إليه يوجه الخطباء إلى متابعة الأحداث الجارية، وتبصير الناس بواقعهم، فيقول في «الفتاوى» (ص ٧٧):

ولو حدث بالمسلمين حادث، فلا بأس بالتحدث فيما يتعلق بذٰلك

الحادث؛ مما حثَّ الشرع عليه، وندب إليه؛ كعدو يحضر، ويحث الخطيب على جهاده، والتأهُّب للقائه، وكذلك ما يحدث من الجدب الذي يستسقى لمثله، فيدعو الخطيب بكشفه، وعلى الخطيب اجتناب الألفاظ التي لا يعرفها إلا الخواص، فإن المقصود نفع الحاضرين بالترغيب والترهيب، وإذا لم يفهموا ما يقوله الخطيب؛ لم يحصل، ومقصود الخطبة للأكثرين، وهذا من البدع القبيحة.

هذه الأمور الطيِّبة التي أحاطت بسلطان العلماء علماً وعملاً؛ جعلته محط أنظار أهل العلم والفضل؛ لأنه لا يعرف الفضل لأهله إلا أهل الفضل، فلما استقر مقام سلطان العلماء بمصر؛ امتنع حافظها ومفتيها الإمام المنذري عن الفتيا، وقال:

كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره؛ فمنصب الفتيا متعين فيه.

وهذا الموقف من الحافظ المنذري ـ رحمه الله ـ صفعة لأنصاف الفقهاء، وأدعياء العلم، المتشبعين بما لم يعطوا، تجدهم يسارعون في الفتوى؛ حذراً من الذم بالجهل، وطمعاً في تصدر المجالس.

ولكن؛ اعلم ـ يا عبد الله ـ أنك إذا أفتيت؛ فإنك توقع عن أمر الله ونهيه، وأنك موقوف مسؤول عن ذلك، فلذلك؛ إذا سُئِلْتَ عن مسألة؛ فلا يكن همك تخليص السائل، وليكن همك تخليص نفسك أولاً، فتفكر، فإذا وجدت لنفسك مخرجاً؛ فتكلم، وإلا؛ فاسكت، فإن الإمساك أسلم، والله أعلم.

فيا أيها المُفْتون! انظروا كيف تفتون! لقد عرَّضتم أنفسكم لأمر عظيم، لا تلجىء إليه إلا الضرورة.

لقد كان فقهاء السلف يكرهون أن يجيبوا في المسائل والفتيا حتى لا يجدوا بداً من أن يفتوا، وإذا أعفوا عنها؛ كان أحبَّ إليهم.

عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى قال:

أدركت عشرين ومئة من الأنصار أصحاب رسول الله ﷺ، يسأل أحدهم عن المسألة، ما منهم رجل إلا وَدَّ أن أخاه كفاه(٢٧).

وكذٰلك سار على منهجهم الرشيد سلطان العلماء، فلما عزله الملك الأشرف موسى بن العادل؛ قال لرسوله الذي بلَّغه ذلك:

أما الفتيا؛ فإني كنت ـ والله ـ متبرماً منها، وأكرهها، وأعتقد أن المفتي على شفير جهنم، ولولا أني أعتقد أن الله أوجبها علي؛ لتعينها علي في هٰذا الزمان؛ لما كنت تلوثتُ فيها، والآن؛ فقد عذرني الحق، وسقط عني الوجوب، وتخلَّصت ذمتي، ولله الحمد والمنة.

ولقد مارس سلطان العلماء منصب الفتيا، فلم يكدره بشيء من الدنيا، بل كان أنموذجاً عندما تطالع مواقفه، كأن حياة السلف الأول بين

(٢٧) أخرجه الدارمي (١ / ٥٣)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦ / ١١٠)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٨)، والفسوي في «المعرفة والتأريخ» (٢ / ٨١٧ ـ ٨١٨)، وابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ١٣٢)؛ من طريق سفيان: ثنا عطاء بن السائب عنه به.

قلت: وهٰذا إسناد صحيح، رجاله ثقات، غير أن عطاء اختلط بآخره، لكن سماع سفيان عنه قديم، وهو ممن سمع منه قبل الاختلاط، فسماعه صحيح.

يديك؛ منها:

١ ـ تقواه في فتواه:

فقد أفتى ذات يوم بأمر، ثم ظهر له خطؤه، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه: مَن أفتى له فلان كذا وكذا؛ فلا يعمل به، فإنه خطأ.

واعلم ـ يا أخي في الله بارك الله فيك ـ أن هٰذا سنة الأجلَّة من العلماء العاملين، الذين يحيطون فتاواهم بالتورُّع، فتراهم ينفون علمهم في مواضع، وفي أخرى يتوقَّفون، ويرجعون في قول آخر للتقوى، فيُكَوِّنون من ذٰلك عظيم قدرهم، وجلالة شأنهم، ولا ينقص من علمهم، ومن تصفَّح حياة السلف الأول؛ وجد أمثلة تسر الناظرين، ويعقلها العالمون، وتكبت المتعالين، وقد أودعتها كتابي «أنصاف الفقهاء».

٢ ـ لا نسألكم أجراً:

ونصح للملك الأشرف، فقال الأشرف:

جزاك الله عن دينك وعن نصائحك وعن المسلمين خيراً، وجمع بيني وبينك في الجنة بمنه وكرمه.

وأطلق له ألف دينار مصرية، فردَّها سلطان العلماء قائلاً:

هٰذه اجتماعة لله، لا أكدِّرُها بشيء من الدنيا.

لقد جرى سلطان العلماء على سنن المرسلين، والدعاة المخلصين، الذين يسوسون الناس بالقسط، لا يريدون منهم جزاءً ولا شكوراً.

فهٰذا نوح أول الرسل ـ عليه السلام ـ يقول لقومه:

﴿وما أَسْأَلُكُم عليه مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلا على رَبِّ العالَمينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩].

وسار على أثره هود ـ عليه السلام:

﴿يا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُم عليهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إلا على الذي فَطَرَني أفلا تَعْقِلونَ﴾ [هود: ٥١].

﴿وما أَسْأَلُكُمْ عليه مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلا على رَبِّ العالَمينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧].

وكذلك صالح ـ عليه السلام:

﴿وما أَسْأَلُكُمْ عليه مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلا على رَبِّ العالَمينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥].

وكذٰلك لوط ـ عليه السلام:

﴿وما أَسْأَلُكُمْ عليه مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلا على رَبِّ العالَمينَ﴾ [الشعراء: ١٦٤].

وكذٰلك شعيب ـ عليه السلام:

﴿وما أَسْأَلُكُمْ عليه مِن أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إلا على رَبِّ العالَمينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠].

هٰذا هو منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله، لا ينتظرون الأجر إلا من الله، وبذٰلك أمر الله خاتم النبيين ﷺ:

﴿أولٰئِكَ الذينَ هَدَى اللهُ فبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عليهِ أَجْراً إِنْ هُو إلا ذِكْرى للعالَمينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقرَّر هٰذا المنهج الرباني الذي سار عليه الأسوة الحسنة محمد ﷺ في عدة سور:

١ ـ الفرقان: آية ٥٦ ـ ٥٧:

﴿وما أَرْسَلْناكَ إلا مُبَشِّراً ونَذيراً . قُلْ ما أَسْأَلُكُم عليهِ مِن أَجْرٍ إلا مَن شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّهِ سَبيلاً﴾.

٢ ـ سبأ: آية ٤٧:

﴿قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِن أَجْرٍ فَهُوَ لكُمْ إنْ أَجْرِيَ إلا على اللهِ وهُو على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ﴾.

٣ ـ صٓ: آية ٨٦:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عليهِ مِن أَجْرٍ وما أَنا مِن المُتَكَلِّفينَ﴾.

٤ ـ الطور: آية ٤٠، والقلم: آية ٤٦:

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فهُمْ مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلونَ﴾.

وهٰذا المنهج الذي لم يتغيَّر من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى خاتم النبيِّين ﷺ، ولم يستَنْكِفْ عن تقريره نبيٌّ ولا رسول، ولم يتنَكَّبْهُ عالمٌ مصلح ورث الدعوة عن أنبياء الله.

أقول: هٰذا المنهج يقصم ظهر أمور ظهرت في ساحة الدعوة إلى الله.

١ ـ أصبحت الـدعـوة إلى الله وظيفة دنيوية، لها مؤسساتها، ولها رجالها، بينما أهل العلم وطلابه حُجِبوا عن ذلك قسراً وقهراً، فلا يستطيعون قول كلمة في مجلس جامع؛ إلا بإذن أو تصريح من. . .

٢ ـ نبتت قضية مسخت الدعوة إلى الله، وتبنَّتْها بعض الجمعيات، وهي مسألة تفريغ دعاة مقابل دريهمات معدودة، فأصبحت الدعوة مطمعاً يتكالب عليه الأدعياء.

٣ ـ انتشر بين كثير من طلبة العلم ترك أعمالهم، ومهنهـم، تحت راية التفرغ للطلب، والتحقيق، و. . .

ويصبح أحدهم يسأل الناس إلحافاً؛ ليحصل على دراهم يسد بها جوعه، أو يصرفها على أهل بيته.

وتناسى هٰؤلاء الطيبون أن الكثير من العلماء عُرِفوا بمهنهم، ونُسِبوا إلى أعمالهم، وفي هٰذا بيان أن العمل لا يصرف عن طلب العلم.

٣ ـ أنزلوا الناس منازلهم.

طلب منه السلطان أن يعهد بالقضاء لأحد أولاده من بعده، فكتب سلطان العلماء بإبطال ذٰلك، ووضع منصب القضاء فيمن هو أهله.

وهٰكذا يأبى سلطان العلماء إلا تهديم أركان البدع المنتشرة، حتى كادت تطمس العلم، فإن تولية المناصب الشريفة بطريقة التوريث بدعة، نصَّ على ذٰلك الشاطبي في كتابه القيم «الاعتصام» (٢ / ٨١)، فقال:

وتولية المناصب الشريفة مَن لا يصلح، بطريق التوريث، هو من قبل

ما تقدم، فإنَّ جَعْلَ الجاهل في موضع العالم، حتى يصير مفتياً في الدين، ومعمولاً بقوله في الأموال والدماء والأبصاع وغيرها؛ محرم في الدين، وكون ذلك ديدناً حتى يصير الابن مستحقاً لرتبة الأب، وإن لم يبلغ رتبة الأب في ذلك المنصب بطريق الوراثة، أو غير ذلك، بحيث يشيع هذا العمل، ويطَّرِد، ويَرِدُه الناس؛ كالشرع الذي لا يخالف بدعة بلا إشكال.



الفصل السادس
من أقواله المأثورة

في محاربة البدع :

طوبى لمن تولى شيئاً من أمور المسلمين ، فأعان على إماتة البدع ، وإحياء السنن .

«مساجلة علمية» (ص ١٠)

في نصرة الحق :

ينبغي لكل عالم إذا أذل الحق ، وأخمل الصواب ، أن يبذل جهده في نصرهما ، وأن يجعل نفسه بالذل والخمول أولى منهما ، وإن عز الحق ، فظهر الصواب ، أن يستظل بظلهما ، وأن يكتفي باليسير من رشاش غيرهما .

«طبقات الشافعية» (٨ / ٢٤٥)

الشرع هو الميزان :

والشرع ميزان يوزن به الرجال ، وبه يتيقن الربح من الخسران ، فمن رجح في ميزان الشرع ؛ كان من أولياء الله ، وتختلف مراتب الرجحان ، ومن

نقص في ميزان الشرع؛ فأولٰئك أهل الخسران، وتتفاوت خفتهم في الميزان، وأخسها مراتب الكفار، ولا تزال المراتب تتناقص حتى تنتهي إلى منزلة مرتكب أصغر الصغائر، فإذا رأيت إنساناً يطير في الهواء، ويمشي على الماء، أو يخبر بالمغيبات، ويخالف الشرع بارتكاب المحرمات؛ بغير سبب محلل، أو يترك الواجبات بغير سبب مجوِّز؛ فاعلم أنه شيطان، نصبه الله فتنة للجهلة، وليس ذٰلك ببعيد من الأسباب التي وصفها الله للضلال، فإن الدجال يحيي ويميت، فتنةً لأهل الضلال، وكذٰلك يأتي الخربة، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل(٢٨)، وكذٰلك يظهِر للناس أن معه جنة وناراً، فناره جنة، وجنته نار، وكذٰلك من يأكل الحيَّات، ويدخل النيران، فإنه مرتكب للحرام بأكل الحيات، وفاتن للناس بدخول النيران؛ ليقتدوا به في ضلالته، ويتابعوه على جهالته(٢٩).

«قواعد الأحكام» (٢ / ١٩٤)

حياة القلوب والطريق إليها:

والطريق في إصلاح القلوب التي تصلح الأجساد بصلاحها، وتفسد بفسادها: تطهيرُها من كل ما يباعد عن الله، وتزيينها بكل ما يقرب إليه،

---

(٢٨) ذكور النحل.

(٢٩) لقد صدق سلطان العلماء، وبر، ونصح، فإن الرائد لا يكذب أهله.

بينما نجد فيمن نصب نفسه لتوجيه دعوة الإخوان المسلمين، والتنظير لدعاتهم، يعد هذه الخرافات من الكرامات!

وانظر كتابي «مؤلفات سعيد حوَّى؛ دراسة وتقويماً» (ص ٧٩ ـ ٨٣).

ويزلفه لديه؛ من الأحوال، والأقوال، والأعمال، وحسن الآمال، ولزوم الإقبال عليه، والإصغاء إليه، والمثول بين يديه في كل وقت من الأوقات، وحال من الأحوال، على حسب الإمكان، من غير أداء إلى السآمة والملال.

ومعرفة ذٰلك هي الملقبة بعلم الحقيقة، وليست الحقيقة خارجة عن الشريعة، بل الشريعة طافحة بإصلاح القلوب بالمعارف والأحوال، والعزوم والنيات، وغير ذٰلك مما ذكرنا من أعمال القلوب؛ فمعرفة أحكام الظواهر معرفة بجلِّ الشرع، ومعرفة أحكام البواطن معرفة لدقِّ الشريعة، ولا ينكر شيئاً منهما إلا كافر أو فاجر.

وقد يتشبَّه بالقوم من ليس منهم، ولا يقاربهم في شيء من الصفات(٣٠)، وهم شرٌّ من قطَّاع الطريق؛ لأنهم يقطعون طرق الذاهبين إلى الله تعالى(٣١)، وقد اعتمدوا على كلمات قبيحات، يطلقونها على الله،

---

(٣٠) هم الصوفية.

(٣١) وهٰذا هو الحق، فقد رد شيخ الإسلام على قولهم: إنهم أنقذوا أناساً من المعاصي، و. . . .، فقال في «الرسائل والمسائل» (١ / ١٥٣):

وكان قد قال بعضهم: نحن نُتَوِّب الناس.

فقلتُ: ممَّاذا تتوبونهم؟

قال: من قطع الطريق، والسرقة، ونحو ذٰلك. . .

قلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم، فإنهم كانوا فساقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه، ويرجون رحمة الله، ويتوبون إليه، أو ينوون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين، خارجين عن شريعة الإسلام، يحبُّون ما يبغضه الله، ويبغضون =

ويسيئون الأدب على الأنبياء والرسل وأتباع الأنبياء؛ من العلماء الأتقياء، وينهون من يصحبهم عن السماع من الفقهاء، لعلمهم بأن الفقهاء ينهون عن صحبتهم، وعن سلوك طريقهم.

«قواعد الأحكام» (١٧٩ ـ ١٨٠)



ما يحبّه الله، ونثبت أن هٰذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي. أ. هـ.

قلت: وهٰذه حجتهم في كل عصر، فإننا سمعنا من أفراخهم الملقبين بجماعة التبليغ مثل قولهم، حيث تبجَّحوا أن كثيراً من العصاة والفاسقين والمنحرفين اهتدوا على أيديهم، وحتى لا يعودوا؛ بايعوهم على أربع طرق صوفية: الجشتية، والسهروردية، والنقشبندية، والقادرية؛ كما وقع في رسالة أميرهم أنعام الحسن إلى الأخ الشيخ سعد الحصين.

فأجبت: كانوا عصاة، وصاروا مبتدعة، والعاصي ترجى توبته؛ خلاف المبتدع الذي تتجارى به الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، فلا ترجى توبته.

ونكتة هٰذا المقام أن العاصي يقرُّ أنه مخالف لأمر الله، مرتكب لمعصيته، فوقوع التوبة منه وارد؛ لأنه لا يزعم أن ما هو عليه هو دين الله، بخلاف المبتدع، الذي يظن ـ بل يعتقد ـ أن ما عليه هو وأصحابه دين الله، بل جوهر الدين، فيغلب عليه الاستمرار في بدعته؛ لظنه أنها الإسلام، فلا تقع منه التوبة؛ إلا أن يشاء الله، فيبصِّره بأمره، ويعلِّمه الدين الحق.

والمقام يحتمل البسط، وقد كان ذٰلك في كتابي «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة» في طبعته التي أرجو الله أن ترى النور قريباً، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الفصل السابع
وأخيراً . . .

أورد بعض مترجمي حياة سلطان العلماء؛ كالذهبي في «العبر في خبر من غبر» (٣ / ٢٩٩)، والكتبي في «فوات الوفيات» (٢ / ٣٥١) خبراً نصه:

«كان يحضر السماع، ويرقص، ويتواجد»!

قلت: هٰذا خبر مؤرخ؛ ينقصه السند الصحيح، والدليل الصريح.

وينقضه قول سلطان العلماء الفصيح، حيث قال في كتابه «قواعد الأحكام» (٢ / ١٨٦):

وأما الرقص والتصفيق؛ فخفة، ورعونة مشبهة لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن، أو متصنع كذاب.

كيف يتأتى الرقص المتزن بأوزان الغناء ممَّن طاش لبه، وذهب قلبه؟! وقد قال عليه السلام:

«خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[٣٢].

---

(٣٢) حديث متواتر؛ كما بينته في غيرما موضع، واللفظ الذي ذكره الشيخ ـ رحمه =

ولم يكن أحد من هٰؤلاء الذين يقتدى بهم يفعل شيئاً من ذٰلك، وإنما استحوذ الشيطان على قوم يظنُّون أن طربهم عند السماع إنما هو متعلق بالله عز وجل.

ولقد مانوا فيما قالوا، وكذبوا فيما ادَّعوا؛ من جهة أنهم عند سماع المطربات؛ وجدوا لذتين اثنتين . . .

وقد حرم بعض العلماء التصفيق؛ لقوله عليه الصلاة والسلام:

«إنما التصفيق للنساء»[٣٣].

ولعن ـ عليه السلام ـ المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء[٣٤].

ومن هاب الإلٰه، وأدرك شيئاً من تعظيمه؛ لم يُتَصَوَّر منه رقص، ولا تصفيق، ولا يصدر التصفيق والرقص إلا من غبي جاهل، ولا يصدران من عاقل فاضل.

ويدل على جهالة فاعلهما أن الشريعة لم ترد بهما في كتاب ولا سنة، ولم يفعل ذٰلك أحد من الأنبياء، ولا معتبر من أتباع الأنبياء، وإنما يفعل ذٰلك الجهلة السفهاء الذين التبست عليهم الحقائق بالأهواء، وقد قال

الله ـ محفوظ، والصحيح:

«خير الناس قرني . . . .» الحديث.

(٣٣) أخرجه مسلم.

(٣٤) انظر «صحيح الجامع الصغير» (٥١٠٠).

تعالى:

﴿ونَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شيءٍ﴾.

وقد مضى السلف وأفاضل الخلف ولم يلابسوا شيئاً من ذٰلك، ومَن فعل ذٰلك أو اعتقد أنه غرض من أغراض نفسه، وليس بقربة إلى ربه؛ فإن كان ممَّن يُقْتدى به، ويعتقد أنه ما فعل ذٰلك إلا لكونه قربة؛ فبئس ما صنع؛ لإيهامه أن هٰذا من الطاعات، وإنما هو من أقبح الرعونات.

وقد زعم بعض الذين كتبوا حياة سلطان العلماء في رسائل وكتب خاصة أن سماعه من النوع الثالث الذي سماه: «بدعة لا بأس بسماع بعضها»، ولا يمكن أن يكون من المحرم؛ لأنه قد ذمه، ووصف فاعله بالجهالة والاجتراء على رب العالمين[٣٥].

قلت: كيف يتصور عاقل أن يفعل سلطان العلماء ما وصفه بالبدعة والاجتراء على رب العالمين؟!

وقال آخر:

إن ما حدث لسلطان العلماء كانت من قبيل الحركات العشوائية، إثر مشاهدته أو سماعه لأمر مبهج مفرح؛ مِن تجلٍّ، أو مشاهدة، أو حالة من الحالات التي تعتري المتصوف.

ثم قال:

ولعل هٰذا اللون الذي أراده المترجمون له بقولهم: إنه كان يرقص.

---

(٣٥) «العز بن عبد السلام»: رضوان الندوي، (ص ١٠٦ و١٠٧).

وهٰذا اللون من الرقص له أصل في الشرع، حيث ذكر ابن حجر الهيتمي في «فتاواه الحديثية» (ص ١٥٨) أن سيدنا جعفراً ـ رضي الله عنه ـ رقص بين يدي النبي ﷺ لما قال له:

«أشبهت خلقي وخلقي».

وذٰلك من لذة هٰذا الخطاب، ولم ينكر عليه ﷺ.

ثم قال:

وبهٰذا يزول اللبس بين حكم الإمام ونُقولِ أهل التراجم عنه أنه كان يرقص.

وقولي هٰذا أولى من القول بنفي ذٰلك بالكلية؛ لأن القول بالنفي المطلق للرقص يؤدي إلى تكذيب علمائنا من النقلة والمؤرخين، ولا داعي لمثل هٰذا التكذيب؛ لأنه يؤدي إلى التشكيك في أقوالهم الأخرى، ولا يُعقل أنه يجمع معظم النقلة القدامى على أن هٰذا الإمام قد رقص، مع العلم أنهم قد اطلعوا على قواعده التي نص فيها على حكم الرقص والراقصين، وهٰذا تناقض؛ كما لا يخفى، وهم من الذكاء ما يباعدهم من الوقوع في هٰذا التناقض الواضح الظاهر، لولا أنهم أرادوا بالرقص ما ذكرته من التحركات العشوائية غير المنتظمة، والتي تعبر عن إعجابه بما يشاهده[٣٦]. . .

(٣٦) «الإمام العز بن عبدالسلام وأثره في الفقه الإسلامي»: رسالة دكتوراه، علي مصطفى الفقير (١ / ١٣٣ و١٣٤).

قلتُ: وفيما ادَّعاه نظر وتمحُّل.

أما النظر؛ فإن دعوى إجماع المؤرخين على مسألة رقص سلطان العلماء لا أساس لها، بل إن الناقلين هم القلة من المترجمين.

وأما التمحُّل؛ فإنه ركب الصعب والذلول لتذليل كلام سلطان العلماء في ذم الرقص والتصفيق اللذين هما شعار المتصوفة.

ودعواه أن ما صدر عن الشيخ الإمام حركات عشوائية يرده نقل الناقلين من المؤرخين أنه كان يحضر السماع، ويرقص، ويتواجد؛ لأن حضوره مجلس السماع يستلزم أنه كان يشارك الراقصين، وهٰذا ما دل عليه النقل، حيث أسنَدَ الرقص للشيخ الإمام، ولم يكتف بالرقص، بل أضاف التواجد.

ومن ثم: كيف يعقل أن يحضر سلطان العلماء مجالس نص على أنها اجتراء على الله، وأن أصحابها مانوا وكذبوا، وأنه لا يفعل ذٰلك إلا غبي جاهل، وإن كان ممَّن يقتدى به!

إذن؛ فأصل النقل غير صحيح، حتى نلجأ إلى التأويل، ومن المعلوم أن التأويل فرع القبول والتصحيح.

وليس هناك تلازُم بين رد هٰذا النقل وتكذيب الأئمة الناقلين؛ لأنهم نقلوا على وجه الإخبار، ناهيك أنهم أسندوا، ومَن أسند؛ فقد برئت ذمته، ولم يحقِّقوا النقل.

ولا يؤدي هٰذا إلى التشكيك في النقول الأخرى؛ لأن ضعف خبر

وردَّه لا يستلزم ضعف الأخبار كلِّها وردَّها.

وتبقى مسألة أن هٰذا النوع من الرقص الذي اخترعه عقل الدكتور تعصباً لصوفيته التي لا تخفى على مَن عرفه.

أقول: إن هٰذا الرقص الذي اخترعه، وزعم أنه له أصل في الشرع، ليس له أصل في الشرع ألبتة، وما ذكره عن جعفر ـ رضي الله عنه ـ معتمداً على قول ابن حجر الهيتمي لا يصح، فإن قول النبي ﷺ لجعفر بن أبي طالب:

«أَشْبَهْتَ خَلْقِي وخُلُقِي».

أخرجه البخاري (٧ / ٤٩٩) وغيره.

ولكن الحال المنقولة عن جعفر لا تصح، ولا يصح شيء عن الصحابة في هٰذا الباب؛ كما بينته في «تخريج أحاديث الوصية الصغرى» (ص ٤٩ ـ ٥٠).

وقد بسط الإمام الشاطبي القول على الرقص والتواجد الصوفي في كتابه المستطاب «الاعتصام» (١ / ٢٧٤ ـ ٢٨٥)، فلينظر.

وبهٰذا يتبيَّن براءة سلطان العلماء مما نُسِب إليه من الرقص والتواجد الصوفي، بل كان ـ رحمه الله ـ سيفاً مصلتاً على خرافات الصوفية وشعوذاتهم، وقد نقلنا جملاً من أقواله فيهم.

فتدبر، ولا تكن من المقلدين.



فهرس المصادر والمراجع

- «أخلاق العلماء»: الآجري، تحقيق: إسماعيل الأنصاري.
- «الاعتصام»: الشاطبي، دار الفكر.
- «الأعلام»: الزركلي، دار العلم للملايين.
- «بدائع الزهور في وقائع الدهور»: ابن إياس، طبع عيسى الحلبي.
- «البداية والنهاية»: ابن كثير، مكتبة المعارف.
- «التاريخ الكبير»: البخاري، دار الفكر.
- «تفسير القرآن العظيم»: ابن كثير، دار المعرفة.
- «تلبيس إبليس»: ابن الجوزي، دار الكتب العلمية.
- «جامع البيان في تفسير القرآن»: ابن جرير الطبري، دار المعرفة.
- «الجامع لأحكام القرآن»: القرطبي.
- «الجماعات الإسلامية في ضوء الكتاب والسنة»: المؤلف، ط٢.
- «حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة»: السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل، طبع عيسى البابي الحلبي.
- «الذيل على الروضتين»: أبو شامة، طبع دار الجيل، بيروت.
- «الرسائل والمسائل»: ابن تيمية، دار الكتب العلمية.
- «زاد المسير»: ابن الجوزي، المكتب الإسلامي.

- «الزهد» : ابن المبارك ، دار الكتب العلمية .
- «سلسلة الأحاديث الصحيحة» : الألباني ، المكتب الإسلامي .
- «السلوك» : المقريزي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة .
- «السنن» : أبو داود ، دار الفكر .
- «السنن» : الدارمي ، دار الفكر .
- «شذرات الذهب» : ابن العماد ، دار المسيرة .
- «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» : اللالكائي ، دار طيبة .
- «شرح صحيح مسلم» : النووي ، دار إحياء التراث العربي .
- «طبقات الشافعية» : ابن هداية الله الحسيني .
- «طبقات الشافعية» : السبكي ، دار المعرفة .
- «الطبقات الكبرى» : ابن سعد ، دار صادر .
- «طبقات المفسرين» : الداوودي ، دار الكتب العلمية .
- «العبر في خبر من غبر» : الذهبي ، دار الكتب العلمية .
- «الفتاوى» : عز الدين بن عبد السلام .
- «فتح الباري» : ابن حجر ، دار الفكر .
- «فوات الوفيات» : الكتبي ، دار صادر .
- «فيض القدير» : الشوكاني ، دار المعرفة .
- «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» : عز الدين بن عبد السلام .
- «الكنى والأسماء» : الدولابي .
- «اللباب في تهذيب الأنساب» : ابن الأثير ، دار صادر .
- «لسان العرب» : ابن منظور ، دار صادر .
- «مجموع الفتاوى» : ابن تيمية ، طبع السعودية .
- «مساجلة علمية» : تحقيق : الألباني والشاويش ، المكتب الإسلامي .
- «معالم التنزيل» : البغوي ، دار المعرفة .

- «المعرفة والتأريخ»: الفسوي، مؤسسة الرسالة.
- «من وصايا السلف»: المؤلف، مكتبة ابن الجوزي.
- «موارد الظمآن»: الهيثمي، دار الكتب العلمية.
- «مؤلفات سعيد حوى دراسة وتقويماً»: للمؤلف، ط١.
- «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»: ابن تغري بردي، الهيئة العامة المصرية.
- «هٰذه تجربتي وهٰذه شهادتي»: سعيد حوّى، دار عمار.
- «هل المسلم ملتزم باتباع مذهب معين من المذاهب الأربعة»: المعصومي، تحقيق المؤلف، المكتبة الإسلامية، عمان.
- «واقعنا المعاصر»: محمد قطب، السعودية.
- «وحي القلم»: مصطفى صادق الرافعي، طبع مصر.
- «الوصية الصغرى»: ابن تيمية، تحقيق المؤلف، الطبعة الأولى.



فهرس الموضوعات والفوائد

الصفحة الموضوع

٧ **المقدمة**، وفيها كلام نفيس للآجري في بيان فضل العلماء.
١١ **الفصل الأول: من هو سلطان العلماء؟**
١١ نسبه ونسبته.
١١ لقبه.
١٢ حكم التسمي بـ (عز الدين) و (ناصر الدين) و. . . . (ت)
١٢ مولده.
١٣ نشأته، وطلبه للعلم، وفيه بيان ضرورة الرسوخ في العلم، وتبيين حال كثير من المتعالمين في أعصارنا المتأخرة.
١٥ شيوخه.
١٦ تلاميذه.
١٧ تواليفه.
١٨ وفاته.
١٨ مصار ترجمته (ت).
١٩ **الفصل الثاني: سلطان العلماء وملوك الأرض.**
١٩ إنكاره على الملوك التنازل عن ديار المسلمين للفرنجة الغاصبين.

١٩	تركه الدعاء للصالح إسماعيل؛ لأنه تحالف مع الصليبيين ضد ابن أخيه الصالح نجم الدين أيوب، واستبداله بدعاءٍ عظيم.
٢٠	تزوير الجواسيس كلام الشيخ سلطان العلماء.
٢٠	اعتقال الشيخ سلطان العلماء.
٢٠	نماذج من سبيل المجرمين.
٢٠	صمود الشيخ سلطان العلماء في وجه الباطل ورفض الإغراءات الكثيرة.
٢١	استعلاء الإيمان أمام إغراء الشيطان.
٢٤	نموذج من تقرب العملاء لأسيادهم.
٢٥	نهاية العملاء (ت).
٢٦	انتصار الجيوش الإسلامية على المنافقين والصليبيين.
٢٦	نصحه للملوك.
٢٦	مع نجم الدين أيوب في قلعته.
٢٧	سر جرأة المؤمن وشجاعته.
٣١	سلطان العلماء يبيع ملوك الأرض.
٣٢	الثقة بين العلماء والعامة جسر إلى تغيير المنكر وإقامة حكم الله.
٣٤	معالم في طريق استئناف حياة إسلامية على منهاج النبوة.
٣٦	بقاء طائفة على الحق حتى يأتي أمر الله.
٣٧	عناصر الثبات والتثبيت.
٤١	ركائز نصر الله للمؤمنين.
٤٢	عالم تهابه الملوك.
٤٢	فرح الملوك بموته.
٤٣	كلام نفيس ووصف بليغ للكاتب الإسلامي مصطفى صادق الرافعي.
٥٥	**الفصل الثالث: سلطان العلماء والجهاد في سبيل الله.**
٥٥	ذروة سنام الإسلام.

٥٨ عين جالوت.
٥٩ دور الشيعة الرافضة المتحالفة مع المغول في إسقاط دولة الخلافة.
٦٠ وصف رهيب للدمار الذي حلَّ ببغداد على أيدي المغول.
٦١ من أساليب العملاء عندما يكونون في مراكز القيادة والتوجيه.
٦١ مثال تاريخي على نهاية العملاء.
٦٢ موقف سلطان العلماء في مواجهة التتار.
٦٣ انتصار جيوش الإسلام على التتار.
٦٣ بين الأمس واليوم.
٦٥ **الفصل الرابع: سلطان العلماء وإماتة البدع.**
٦٥ خطورة البدع.
٦٦ من البدع التي هدمها سلطان العلماء.
٦٧ فتوى لسلطان العلماء فيمن زعم أن الدين قشر ولباب.
٦٨ خطورة هٰذه الدعوى.
٦٩ إبطال هٰذه الدعوى من وجوه كثيرة.
٧٩ دوافع هذه الدعوى.
٨٦ السبيل الوحيد.
٨٩ **الفصل الخامس: سلطان العلماء والفتوى.**
٨٩ تواليفه في الفتوى.
٨٩ نشأته المذهبية.
٩٠ تحرره من المذهبية.
٩١ فوائد في مناظرة أهل البدع (ت).
٩٣ حال الناس قبل شيوع المذهبية.
٩٣ نماذج من اجتهادات سلطان العلماء.
٩٦ توجيه للخطباء والمفتين.

٩٧ تنازل الحافظ المنذري ـ رحمه الله ـ عن منصب الفتيا لسلطان العلماء.
٩٨ حال السلف الأول في الفتيا.
٩٩ مواقف سلطان العلماء.
٩٩ تقواه في فتواه.
٩٩ لا نسألكم أجراً.
٩٩ خطورة اتخاذ الأجر على الدعوة إلى الله.
١٠٣ أنزلوا الناس منازلهم.
١٠٥ **الفصل السادس: من أقواله المأثورة.**
١٠٥ في محاربة البدع.
١٠٥ في نصرة الحق.
١٠٥ الشرع هو الميزان.
١٠٦ حياة القلوب والطريق إليها.
١٠٧ مناقشة شبهة لأهل البدع (ت).
١٠٩ **الفصل السابع: وأخيراً...**
١٠٩ هل كان سلطان العلماء يحضر مجالس الرقص الصوفي والتواجد؟!
١١٥ **فهرس المصادر والمراجع.**
١١٩ **فهرس الموضوعات والفوائد.**



طبع بإشراف
دار الصحابة
للطباعة والنشر
ص.ب ١٣/٦٠٠٥ شوران
بيروت - لبنان





دار ابن الجوزي